شعر

انْفِصَال

سِيرَةُ عَنْقَاء هَزِيْل

علي رياض

انْفِصَال

سِيرَةُ عَنْقَاء هَزِيْل

انفصال
سيرة عنقاء هزيل

علي رياض

ترجمة عنوان الكتاب باللغة الإنكليزية:

Separation

A Biography of a scrawny Phoenix

By Ali Riyadh

الطبعة الأولى: يناير ـ كانون الثاني، 2023 (1000 نسخة)

Copyrights@Dar Al _ Rafidain 2022

(C) جميع حقوق الطبع محفوظة/ All Rights Reserved

حقوق النشر تعزز الإبداع، تشجع الطروحات المتنوعة والمختلفة، تطلق حرية التعبير، وتخلق ثقافةً نابضةً بالحياة. شكراً جزيلاً لك لشرائك نسخةً أصليةً من هذا الكتاب ولاحترامك حقوق النشر من خلال امتناعك عن إعادة إنتاجه أو نسخه أو تصويره أو توزيعه أو أيٍّ من أجزائه بأي شكلٍ من الأشكال دون إذن. أنت تدعم الكتّاب والمترجمين وتسمح للرافدين أن تستمرّ برفد جميع القرّاء بالكتب.

بغداد ــ العراق/ شارع المتنبي عمارة الكاهجي

تلفون: 9647811005860+/9647714440520+

www.daralrafidain.com
info@daralrafidain.com
daralrafidain@yahoo.com
Dar ALRafidain دار الرافدين
daralrafidain
dar.alrafidain
dar_alrafidain
daralrafidain دار الرافدين

تنبيه: إن جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبّر عن رأي كاتبها، ولا تعبّر بالضرورة عن رأي الناشر.

ISBN: 978 - 9922 - 671 - 83 - 3

شعر

انْفِصَال

سِـيرَةُ عَنْقَاء هَزِيْل

علي رياض

www.daralrafidain.com

باب المأساة

لكَ في ماء فضتي شرخ أسود، تنسل روحُك في ضيقه وتختبئ ورائي، أنا صورتك وأنت ظلي. أنظر حولك لترى الحقيقة فادحة؛ هذي أرضك مفروشة بالرمل، وذي يداك تحمل بين أصابعها سمكة ذهبية ميتة.

حديث مؤجل

قبل أن تُشعلَ السيجارة

أو ترهنَ عينيك لبضعة قرود يمرحون على شاشة

تعالَ لنفرشَ الأرض بالحديث المؤجل

ونفتحَ نافذة الخراب المخبأة بالستائر الملونة

ونعيد تشغيل الأغنية بلحن جديد

فلا الرقصة رقصتك، ولا مرح الأطفال وكسل الأغنياء ودلع العواهر

لهن جذراً حقيقياً في صدرك

يمنحك ذاتاً جديدة واسماً غير علي

تعال لأقص عليك ما لم تقله الحسناء في غابات بروسيا

لستَ شجرة عالية يحفظ على أغصانها زوجُ البوم صغارهما

ولا هيبياً يترك في كل خطوة أثراً مشاعاً للعامة

أنت الريشة الهاربة من طعام القط

سقطتْ من السماء على رأسها تعويذةٌ

فصارت قطرةُ الدم نبعَ حبر

وصرت تكتب

تعيد خلق الطير وترافق وهمَه تحت سقف غرفتك
تخط في الهواء ريشة أخرى لتؤنِسَك
وتفتح لها النافذة قبل بزوغ الفجر.
تعال لأريكَ ضعفك أيها المهزوم
جُلُّ سنين عمرك دمٌ مهدور من جرح قديم
يا ساكن الوهم ومؤثث عدمه
أنظر بوجهك، بعينيك اللتين ضاجعتا الليل
وحفر سكونهما في الجدار أثراً
وغيرت دموعهما من طعم السواد
يا رب الغريب
وشيطان المسافات
ولسان الصدى
استيقظ
وعد علياً المكسي بالظل
والعاري في العزلة
مناجي الوحوش وصاحب الحشرات
وارسم دروب الهرب السرية وافشها من موضعك
هذا الهروب ليس لك.
ولا بأس أن تطوي العالم مع سراويلك الداخلية وجواربك في درج الثياب
أن تعتزل الكارثة وتصد عن النكبات

أن تُقلب في صفحات النساء

وتستمني باكياً.

لا بأس أن ترقد، أو تحاكي الموت

فلست ذاك الحي الذي يركض فوق الغيم

ولست سائق الدراجة الذي يسابق الرياح على ضفاف النهر

أنت علي، يا علي

أنت الذي خُلِقَ ليناوب بين الأذى والشكوى

ويلبس نظارة زرقاء

ويكتبُ كل يوم.

سأشعل الآن سيجارتك

واستبدل الأغنية بلحن من صندوقك القديم

وأعثر لك على فيلم يشبهك

ثم أقرأ على روحك السلام

السلام!

تناسخ

لو لم أكن اليراعة المضيئة، الفراشة الزرقاء، أو الصدى العالق في الهواء، لكنت محارباً يحفر قصيدته على نصل سيفه، يفقأ عين العفريت في كوابيسِك، ويصنع من الرياح مركبة آمنة، لكان لي بدل الكلمة الناعمة عن الحب أرض أحرثها بذراعين سميكتين، وأطعمكِ من خوخها قبل اكتمال نضوجه.

لكنني سمٌّ معتق يحاور الأحلام والأوهام، ويحب كالسجناء من خلف قضبان النوافذ، وحين يطلق سحره، يحجب الشمس بالغيوم ويسقي شتلة اللبلاب في شرفتك البيضاء. سمٌ يسيل على الفجر حين تهجر السماءَ الظلمةُ ويغيب عنها الضوء، ويرى كما يرى النائم في حلمه: أنه سمكة في سرب ذهبي، مر به الحوت وابتلعه، وحين أطلقه لم يدرِ إن كان ذهبه قد سقط في بطن الحوت أم غير السرب لونه، فمضى في البحر وحيداً.

وأنا السم الذي عثر في سره على وردة بيضاء، يَصفرُّ بياضُها إن أخطأته العين، ويسيل عطرها دمعاً إن جفاها الندى. قال هذه الهشة تشبهني، لا حرب لديها في الحدائق ولا عمل لها غير أن تكون صورة تلهم السابلة بالمحبة وتمنح يومهم لحظة صفاء. وقال سأسقي جذرها المزروع في قلبي وأورقُ، وأهدي الحبيبة وردتي.. لكن السراب تزيحه الكثبان.

ثم قال السم: أنا نبيذ قروي أصيل، أخلط البهجة بالحزن الشفيف، وأصنع الأحلام خيمة في الليالي الممطرة. أنا أثر أينما حللت؛ لي بصمة على شعاع شمس الربيع، واسمي مخطوط على غبار الهواء. وأنا جميل كغابة عذراء، كسطر في كتاب مقدس، وغدي طين بين يدي فنان. وقال أحبكِ.

ثم حل الصباح، وقالت له المرآة في زاوية الغرفة: لك في ماء فضتي شرخ أسود، تنسل روحُك في ضيقه وتختبئ ورائي، أنا صورتك وأنت ظلي. أنظر حولك لترى الحقيقة فادحة؛ هذي أرضك مفروشة بالرمل، وذي يداك تحمل بين أصابعها سمكة ذهبية ميتة.

مناجاة الزهرة للأغنية

كان الصباح، وكانت الأغنية بجناحين خفيفين يضربان الهواء وئيداً، على شفا الزهرة كانا يصعدان وينزلان، والأغنية تذوب قطراً على بتلات أرجوانية ولا تفقد شكلها، دمعةً تتضاعف وحتفاً يتكرر.

النداء فانٍ، والصدى في الخلود

وكان الصدى يمر على الشمس فلا يسرق الذهب، يزهد بالضوء، ويعكسه في الصوت حزناً، ودفئاً يغطي به الحزن، وصورةً مصغرةً من اللّه.

وكان النداء ينفد في الطريق إلى اللّه، تعباً وانكساراً وهشاشةً، يتساقط هشيماً على اعشاب الطريق، الصفراءِ منها والخضراءِ، يلمع في الهواء مثل غبار يتجمل، ويذوي مع طرفة العين وتتجاهله الذاكرة.

وكان عند عتبة الزهرة سيل من الأغنية، إيقاعُ نبضِ قلبٍ عليل، يتحسس الوجود بأناملَ ناعمة، ويجري إلى مسقط السيل ولا يبرك في الوحل.

وكانت الزهرة تنتقل من الأرجواني إلى الأصفر، وورقُها من الأخضر إلى الأصفر، وتزداد في روحها الحياة بما يعارض الطبيعة، فتقول للأغنية: يا أغنية

يا صلاة أثقلت نسغي

وحيرة سلبتني الحياة بفرط الحياة

هذا عطري يموت جمالاً

وهذا جذعي ينحني، وهذه الأرض تنتظر.

لكِ السماء والأفق والصدى

لكِ رضاب اللغة وخضاب المعنى

وبين يديك يصغر الوجود ويقرفص، فترتفع الأنهار وترتوي الصحارى.

أنت خفيفة وهشة وجميلة، كخفتي وهشاشتي وجمالي

وانت اذ تمرين بي اصطدم بك

وروحي وروحُك خرقتان هزيلتان، وإن أخفيا بطياتهما خواتم الأسرار واسماء اللّه الخبيئة.

ثمة رجل نحيل في زحمة على طريق

رأى في الصباح أغنية ترفرف فوق زهرة

تذوب على بتلاتها مثل دمعة تتضاعف

فصار آخر الطريق منديلاً في مرآه

وانحبس هواء العالم كله في صدره.

العطف العطف لي وللرجل النحيل، تباركتِ.

عاقداً يديَّ وراء ظهري

لقد أفلستُ أيها العالم، وخرجت إليك بقلب فاضٍ، وعقل طائش، ولسان صائم عن الاحتفال والشكوى. كيسي مفتوح أمامً العطايا، ويداي معقودتان وراء ظهري، لا عاطفة فائضة لدي لأشفي بها جرحاً، ولا طاقة في الروح أسرفها على الوجود.

لتكن هذه آخرتك، وتنشق أرضك، ويتساقط مجد الأنسان المصفوف على سطحك، لست مكترثاً بهلع النهايات، وهستيريا النجاة، وهلوسة القيامة، ولا وقت لدي أخسره أو اكتنزه لما تبقى، سأمضي إلى لحظتك الأخيرة عاقدا يديَّ وراء ظهري، وسأصفر على ضفة النهر، أو سطح المنزل فاغراً صدري لما تبقى من النسيم.

فإن نجوتَ، فما تبقى من الوقت لي وحدي، أكتب فيه ما أشاء وأدعي حب ما أشاء. سأحرق ما يروق لي من الساعات بالنظر إلى المرآة، سأخط دائرة على التراب لا معنى لها، وأكتب على جدار مجهول ما لن يراه غيري. هذا الوقت لي وحدي، وسأصنع بيني وبين أربابي الكثير من الأسرار، وسأفشي للنساء ما اجتزأ منها، فالحقيقة ثقيلة، وتطرز المعنى على القماش البتول.

لقد حزنتُ أيها العالم، حاورت العتمة في ما لا أستطيع أن أحصيه من الليالي، وسمحت للضوء أن يسقط على هشاشتي، فنخرت ظلي، ولم يكن لي حينها

سندٌ سواه. لقد ذاب وجهي بحمض الندم والشك، وكدست السنوات على ظهري كبغل، ولم أرم بنفسي من أعلى التل، ولم أضِع المتاع على طريق الصخر، وآن لي الآن أن أمشي خفيفاً، وأمر بليد الوجه بجانب العزاء والفرح، فلا مكان على سريري لأشباح اصطحبهم معي إلى المنزل، فاشهد أنني حزنت.

ولقد أحببتُ أيها العالم، أغمضتُ عينيَّ ليلاً على الشوق وفتحتهما صبحاً على الخذلان، وكنت بعد كل كأس سم أجرعه أقول لا بَأس، وأغص بالعاقول وأقول لا بَأس، وأنقل صرر الصبر الحجرية مجروح الخاصرة من كتفي الأيسر إلى الأيمن ومن الأيمن إلى الأيسر، حتى عجز لساني عن تكرار «لا بأس». وها أنا الآن أغير ضماد خاصرتي كمن لم ير جرحاً، ولا أدري إن كان هذا استعجال للشفاء أم تعطيل له، فاشهد أنني أحببت.

ولتشهد كذلك أنني الآن أعقد يديَّ وراء ظهري، أمضي بلا وجهة، بلا جدوى أعيش، وألعنُ على الطريق الحق والخير، ما أعظم النجوى!

صورة فوتوغرافية للتعب

مثل غيمة تقذفها الريح أبداً، وتكوي ظهرها الشمس، وتبكي

مثل ساعة لا تتعطل، تدور حول دائرة واحدة، إذ لا يغير اختلاف الليل من النهار لديها غير تباين مواقع الأطراف

مثل حجارة قبيحة صالحة للركل، أو حذاء وحيد على عتبة عامل، أو راية بلاد محتلة..

مثل أشياء كثيرة لا ينجيها اليأس، ولا تدركها الجدوى، أبقى كمن كانت الأبدية أمه وأباه الاحتضار.

تهويدة

نم يا صغير

يا جناح الغراب الأبيض

وبرعم الشجرة اليابس

وخط الاستواء المكسور.

نم قبل هذا الفجر

قبل مجيء الذئاب

قبل فورة الأسئلة

نم أنت لست ما ظننت

ولا صورة الظن القادمة

أنت مقرون بالرياح، وهذه شعلة زائلة

تهويدة 2

إيه يا روحي عليك السلام في هذه اللحظة، في المشقة والجوع والاضطراب، في النزول الهائج والصعود الكسول، في الشبق المكتوم والحسرة الصاخبة.

إيه يا روحي لترقد زواياك. وضبي ظلالك في الخزائن، وأشباحك في الأدراج. إنه ليل غائم هجره القمر وعاد ذئبه إلى الغابة، لا خوف يا روحي ينسل من النوافذ، ولا بهجة يا روحي سترسلها السماء.

إيه يا روحي لتسكني العتمة، وتغوصي بأحشائها كلؤلؤة سوداء، هي فراشك أيتها الخفيفة، وبحرك الآمن والمعزول، كوني قنديله الشفيف وابتلعي سُمك، واكتبي ماءه بحبرك ليغنيك قداسه، هذه صورتك لتحفظيها، وهذا قدرك لترتضيه.

عسر الكلمة.. إبراء الهواء

في دوامة من صدى يتضاعف، وحصى يطفو في الهواء وينتأ في وجهه كالثؤلول، تهاجر الوحوش من أقاصي العالم إلى مضجعي، حيث لا عين تنام ولا قلق يرقد، لتطلق نشيدها المسحور؛ تهويدة أم الشيطان لولدها. فأصغي، أنا المعقود في أرضي، الملعون بالسكون والخرس، فأصغي، وأعيد في رأسي ما قاله الأولون من الشعراء والرسل، ويختلط النشيد بالآيات فيُبَح الصوت في رأسي، ويسيل الكلام من كيسه المبقور بالخوف والتشظي.

وسط دوامة الصدى الدائرة حولي، كهنود حمر مفطوري الأفئدة، ساعين للثأر من الليل والضوء والكلمات، أبحث عن لساني، وأدفع نحو كلمة واحدة أتلفظها فتيقظني، أو تضعني على الطريق فأخلف القلق والصدى وأمضي، وسط الدوامة أمد يدي إلى العتمة فتمتد مثيلتها إليّ، وأقول في سري: هذه أصابعي، نحيلة تقفز عروقها كضفادع فوق جلدها، وذي سحنتي تائهة بين السمار والبياض، لكنني.. وأسحبها كمن مس الحديد ذائباً، وأجلس في وسط الدوامة القرفصاء.

يا ربِ، لقد أعيى السكوت روحي، وما أنا زكريا، ولا أملك في هذا الوجود سوى الكلمة، أنا مريض وخائف وغريب، وهذا العالم الغاص بالوحوش يجترني، أعدها أليَّ وسأنذر معناها في مذبح المعنى. أحدقُ في العالم الراكض وراء نجاته عاضاً على جلبابه بأسنان من حديد، وأذهبُ وحيداً إلى آخرتي، أقذف الكلمات على الماء فتطفو، وأبرأ وجه الهواء من الثآليل.

العرّاف الذي قال: كذب المنجمون

*

بعد أن عادت الشمس إلى سريرها، تسلل من نومها كابوس إلى العالم.

*

دارت المراوح متثاقلة في الغرف، وغشّى على ضوء المصابيح غبارٌ ثقيل، أطلقتْ السيجارةُ دخاناً أكثر مما ينبغي، وانخفض ايقاعُ صوتِ صراصر الحقل في فناء البيت، كأن أحدهم قال: ألا يكفي؟ لقد أصبح الأمر مملاً للغاية.

*

ثمة فتاة تشبه الابتسامة التي يرسمها الصغار في الدفاتر، تشبه حبة الطماطم الطازجة حين تبتل، والرمل الملون في الساعة الرملية. أصابها اليوم حزن طاغٍ على المساء، واصطبغت براءتها بزرقة الغربة، قالت سأكتب رسالة عن العشب والذهب، لكن الليل ضيّع قرطاسَها.

*

ثمة امرأة لا تتحدث، تفكر مثل كاميرا، وأيامها متفاوتة بالطول. دون مناسبة، قذفتْ شريطَها الممغنطَ في سلة الأزبال، والتقطت أمام المرآة ألفَ صورة، كصرخة محتجة أمام المرآة التقطت ألف صورة، كألفِ صرخة لن يسمعها أحد. ثم استخدمت لسانها المؤنث للمرة الأولى: يا علي، الرغبة في صندوق مغلق ضيَّعت مفتاحَه الأماكن، شاهد كيف يحتضر العالم، ودع الحزن مبعثراً، والليل يفعل ما يشاء.

*

في مكان آخر، كان الحزن امرأة تقاوم غواية الحقيبة، كانت الأبواب مواربة، والأسطر تنحسر في الحكاية.

*

على مبعدة من الجميع، كنت عرافاً يردد «كذب المنجمون»، أصغي لصوت سقوط أجنحة الملائكة، إلى فزع الغربان وهجرة الفراشات، أفكر بالقيامة، أستعد لنبأ موت الشمس في فراشها، ونهاية العالم.

في هذه الليلة تيقنت أن الحق خريف يتساقط على المصطبات، وأن ثلجاً شتوياً سيدفنه

كان الأمر مريباً أن أمضي بعيداً، وأقص على الغرباء محنتي. أن أنجو واترك حكاية الحق القديمة للجدات، بينما أتناول الدونات والماكدونالدز والكولا.

حسناء على رصيف السليكون

يا صاحبة الصورة..

أعيش اليوم على أرصفة السليكون، ألقح سماعة الهاتف بلا واقٍ ذكري، وأنادي كل جميلة مثلك يا حسناء دون مواربة. تركت قرب الشاحن بعض حيائي، وضاع بعضه حين ركضت تحت جسر محمد القاسم، جلست على سطح البيت أكتب غزلاً بشامتك المبهرة على وجنتك اليسرى، وبوحمتك الهاربة من الستيان الأسود، وبثقب الجورب، كنافذةٍ للشهوة، فوق ركبتك البيضاء، ثم نسيتُك، وغازلت حسناءً ثانية لا أعرفها، سأنساها أيضاً، لا تبتأسي، لست رخيصاً ولا أنوي شراء مراهقتي المسلوبة أثناء الحرب الأهلية، في أبو غريب لم استمنِ طوال مراهقتي، كنت أخاف مداهمة الجيش وأنا جُنبٌ، كنت أصلي، على أية حال، ماذا كنت أقول؟

نعم.. لا تبتأسي، فهذا طوق نجاتي، حين تغص الأرصفة الحجرية بالجثث، وتغتسل بأدمغة الأطفال، حين تنام امرأة في الشارع وتسيل دماء دورتها الشهرية من ثقب يعرفه الرشاش ويجهله الطبيب. هذا طوق نجاة، فظلال الحسناوات تحجب رائحة الموت، وتبعد أفكار الهجرة عن عشاق الأرض وتكبح بعض رعونتهم.

أتعرفين يا صاحبة الصورة

ما معنى أن يطوي الرجل كرامته تحت وسادته وينام؟ أن يطلب ثمن سجائره من أمه؟ ويخفي جرح القنبلة الصوتية بلحيته الكثة؟ ثم يزور المقهى الموبوء ويشرب شاياً مجانياً ويقول: المطرت والصحت شمحصل العاكول.. أتعرفين؟ فلا تبتأسي إن طلب لحس عنقك الأبيض وجرح شفتيك الورديتين بعد التحية رأساً، فلقد نفدت بطارية الانتظار في رأسه، وفرش يأسُه أخلاقَه بعدم الاكترات.

وأنت أيضاً يا صاحبة الصورة

انهي انتظار العاطفة والروح في هذا البلد الخرِب، اقتلي أساطير الرومانسية واحجريها في المسلسلات الأجنبية، فلا أرواح على أرصفة الحجر أو السليكون غير أرواح الموتى، ولا قصائد للشعراء في هذا البلد المأتم غير الرثاء، أما نحن، فجثث لا تزال الرصاصات تبحث عن أرواحها، جثث تغازل عنقاً أبيضَ وفخذاً

مكشوفاَ وتحتمي بظل الحسناوات من منجل عزرائيل، انهيه وانشري صورتك القادمة عاريةً، فالشرف الرفيع سال على جوانبه نهر من الدم ولم يسلم.

شبح الغاية

في الهواء الطلق كانت النفايات تحترق، كما تحترق الغاية في رأسي.

فقس بيضُ العيون، وانشقَّ جفن على جفن، شف لهما العالم وتعرى، جلس العالم بليداً وأكد عدمية الغاية.

ببيجامة مخططة، جلستُ مستريحاً على الارض، وضعت ملعقة فارغة في كأس فارغة وأكلت حتى التخمة ونمتُ

ثم رأيت بعد حياة، وثلاث ميتات، وعشرات القبلات

أن لا شيء في الهواء سوى الدخان

وشبح الغاية، يجلس القرفصاء في زاوية الغرفة.

الملاك يسقط

يأتي الربيع

النسيم يحمل أخبار البراعم

والشمس ناعمة على بلاط الطارمة

تصبغ شعر ذراعي بألق الذهب.

على أغصان شجرة في الجوار تحتفل حفنة من العصافير

حتى يقطع لحظة السهو الطويلة

بوم، على غير العادة، ينعب في النهار.

ثُمَّ يسقط ملاك

أرى صورته

هلع عينيه المخططتين بشعيرات الدم كالعضلات

وأسمع خفق جناحيه يصارعان الهواء

يخرق عمق الهواية سهماً أبيضَ

تدير عنقه الخيبة نحو السماء.

ثَمَّ ملاك يسقط أسمعه وأراه

يملأ ريشُه صدري

عويله يدنو كأمس ويبتعد كنجاة

أمد يديَّ إلى الصوت

فيمتد انعكاسها إليَّ

وأرى أسفل قدميَّ عتمة تصعد باتجاهي

وأرى فوق رأسي الملاك يسقط حاملاً وجهي

وأنا أدنو من الأثنين كما الأمس يدنو والنجاة كما تبتعد.

فزاعة الحقل

حين يمسك ألم

كأن فكا شيطانيا يقضمك

بأسنان حديدية مثلومة،

وأن يداً شبحية سوداء

تعتصر قلبك بعتمتها،

وأن الطائر على نافذة غرفتك

توقف عن الغناء شتاءً،

تشعر بالوحدة.

حين يمسك ألم

كأن راية الوجود

مزروعة في ظهرك،

وأن صورة أيامك الطويلة

خالية منك،

وأن الكائن الملاكي الأسمر

ربط عنقك بالفضة وغادرك،

تشعر بالوحدة.

حين يمسك ألم

كأن ذراع الحياة القوية

تنازل ذراعك المكسورة على طاولة،

وأن فزاعة الحقل في الكابوس،

التي تأكل الغربان من رأسها الحبوب

أنت.

وأنك بعد أن تستيقظ في غرفتك

وتفتح الستائر وتسمح للضوء بالدخول

وفي اللحظة التي تشعل النار لتأرَّث سيجارتك

ترى أنك فزاعة في الحقل تنفث الدخان

وتكتب الشعر عن الطائر والملاك

وتتأوه من الألم كثيراً

وتشعر بالوحدة.

قلب متعب

أجلس على الخراب كوردة

أحب وأحب وأحب حتى يتدلى لسان قلبي

وأغني

حتى تصاب كلاب الليل بالصمم

قصيدة الأمس

(1) في ليلة الأمس كانت هناك قصيدة، غلبها النعاس بعد أن غابت الجدوى. كانت عن الخوف أو الجمال، أو ربما عن امرأة حادة الطباع، وجهها خمري تغرق فيه عينان كعيني البوم مدورتان، وتلبس من حرير شيراز زياً فارسياً، أو ربما كانت عن الصمت والصخب، عن ذكر الضفدع الذي يملأ الليل بنقيقه ليجلب الأنثى ويذكر الطبيعة أنه موجود، أو عن همس زوجين جديدين في الفراش يتكاشفا رغباتهما بعد أن أطفآ النور واعتزلا العالم، وربما عني، وأنا أفكر بالقصيدة التي سأهجرها وأنام، والذنب الذي سيتسرب إلى حلمي بقصد كابوس ووسامة الشعر البهية.

في ليلة الأمس ثمة قصيدة مرت، لا تستعاد لكنها ترثى كثورة ناقصة ولوحة مات رسامها قبل إنجازها.

أين نامت كلماتها؟

وخيوط فكرتها، هل حملتها الريح من رأسي بعد أن أعرضتُ عن الغَزْلِ ورميت أصابعي جثثاً صغيرة في الفراش؟

هل ستحيا في أفق ينزوي عن الحياة التي أعرف، أم أنها ماتت؟

(2)

ثمة ورقة على منضدة في كوخ بعيد، لا يعتليها التراب ولا تصادر الريح صورتَها الثابتة، رغم أن الكوخ يتنفس، والعشب في فنائه يعرف الإصغاء والتصفيق ويبكي.

ثمة الكثير من الأسطر لكِ، انتشري على سراطها، وتنغمي على إيقاع الطبيعة وتماهي في معمارِك مع الشروق والغروب، والحر والمطر. كوني القصيدة التي تنمو وتتمايز، تغير ثيابها ولغتها كل صباح، وكوني وحدك النص الذي يقرأ نفسه للنافذة والمرج والطير والهواء.

ثمة الكثير من الحياة بعيداً عن قرطاس الشاعر الذي أغواه التعب وجرجره النعاس، فأغلق عينيه وأطلق خيوط الفكرة في مهب الريح، حين تذكّر أنك أمس يرثى، كالقصيدة التي مرت مثل ثورة ناقصة، أو لوحة مات رسامها قبل أن ينجزها.

قطعة ثلج

كقطعة ثلج تحلم بالاحتراق
لكنها تقطر في الدرب الذي لا ينتهي
حيث تتبع الأيام أثرها.
كقطعة ثلج لا تتبخر،
فتصبح واسعة وبعيدة وغامضة
يخرقها الضوء بلا استئذان كمغتصب
وتقطر من أسفلها كطفل بلل سرواله خوفاً
كقطعة ثلج متعبة
تنظر إلى بركة الماء بلا خوف
وترى قبراً هانئا، تشتهيه
تشتهي حجراً يقفز مرحاً على وجهها
ونورساً يأخذ مؤونته من باطنها بعد أن يلقي التحية
وعلى حافتها يجلس العاشق ذو الأسرار
يبوح بكل شيء
ويترك لها بضع قطرات تساعد في موسم الجفاف القادم.

مناجاة المناجي لنفسه

لا بأس

إن كانت الرجولة ثقيلة، أيها الولد الصغير، على كاهلك

والليالي، مثل مسافات الحب المثالي، عصية على النهايات السعيدة

لا بأس

أن تعلق الخيبات قمصاناً في خزانة الثياب

أن ترتديها في مواعيدك العاطفية

وأن تشتاق العواطف الميتة، والقصص الميتة، والقصائد الميتة

وأن تحب كمناحة

تترك خطاها آثارَ دمع في شوارع الضحاكين.

لا بأس أيها الولد

هذه الكمنجات صديقاتك حين يَقرِصُ البردُ روحَك فيرتد للآه صدى. وحين يفرق المطرُ الزحامَ أزواجاً وأنت فرد. وحين يضيق يومُك، فتحسِرُ غصةُ حزن عن رئتيك الهواءَ، كمن غص بقماشة سوداء، فتمد في الفضاء يدك لتمسك ما يسنِدُك فتسقط يدُك في شسع الفضاء.

لا بأس أيها الشاعر

هذه الصفحات صديقاتُك حين تمتلأ المرمدة بالأعقاب البيض والصدر بالأعقاب السود والروح بكدمات الجمر كأنها جلد على المرمدة. وحين تفيض على هاوية ولا تَجرِفُ سواك، وحين يسبِقك الزمنُ، فتطوف في حاضره شبحاً تخطئه عيون الناس ويُرعب في الليل القطط والكلاب.

لا بأس أيها الولد المثقل بالإيمان والرجولة

أيها السائر كمناحة

والغاص بالقماش الأسود

سيمر هذا الشتاء

باب الحسرة

أي مشقة أن تكون وحيداً هكذا

لا ترى بشراً،

لا أرباب فوقكَ

وتحت قدميك لا يصمد التراب على التراب

ستذكر هذه الجلسة

صورة البلاط المبلل، وسيجارتك التي لا تنتهي

عند كل وجع مقبل

فتشفى

أنت لا تنسى.

ستلاحقك التفاصيل

وتجرح نوايا السعادة

ستنمو في البرد على الفراش

وصيفاً تتغلغل في الهواء النافذ إلى صدرك

فيزداد سخونة

ستحلم

وتبكي نائماً

ويهمس الغريب في الصباح قصائدك

ستكتب

فأنت إن لم تنكسر، لا حاجة لك في الدنيا

وإن لم يغلف الحزن محيّاك

لا يشتهينك النساء الوحيدات.

ستناجي ربك ساعة، تقرأ قرآنه

وتكفر به في الساعة الأخرى

ولن تنام مبكراً أبداً

أنت ابن الليل

ووحشة انتصافه حبيبتك

*تنويع على قصيدة ما بعد القيامة للشاعر سركون بولص

نقش الزوال

حين ارتجفتا جوعاً وخوفاً، كان جيبا البنطال الجينز، بقماشه القاسي والمشدود، ملاذاً للتفادي، فغرزتهما هناك، كممتُ أصابعي، وقلت ليكن الجيب لجاماً، ولتنم الجيادُ في الإسطبل يوماً آخر أو إلى الأبد. لكن شفتيك في وجهك، أسفل عينيك ببوصتين فقط، لا يمكن تفاديهما، ولا تفادي الضحكة حين ينفتحان وينغلقان كيدٍ تأمرني بالقدوم.

كانت قوة الجذب تنتزع الدم، فاتعرقه، امسحه بمناديل بيضاء فلا أراه، وأنظر بكاميرا المحمول إلى جبيني فأرى المسيح نازفاً دون طوق شوك، وراحتي يديَّ نازفتين دون مسامير، فأمنح الصدَّ خدي الأيسر، وانتظر حكم بيلاطس عليَّ حين أصل البيت.

في البيت حاربت فكرة الفراشة التي تشبهك، الفراشة السوداء المذهبة، الفراشة التي إن مرت في حلم يركع الزمن تحت رفِّ أجنحتها، فتتغير عصور بين كل صعود ونزول لأجنحتها، ويمكن للحالم أن يرى الحبر الأسود يتطاير، يكتب سيرتها القصيرة في الهواء المتمدد، ويراوغ حبات الغبار العائمة. حاربت الفكرة بذاتها، وحفظت السواد على الذهب، ألا أتجاوز ذلك الخط، حيث يصبح الأمس فيه منقوشاً بما تهيَّأ للزوال.

لكنَّها.. ثم أقول اصمتْ، لكنَّ شاماتها.. وأصفع المخيلة عسى تنقلب، وتستحضر أي مطمور غير ذلك. لكنَّ شاماتها خارطةٌ فلكية، رأيتُ فيها برجَ الجدي وقرأت طالعي، وكانت تخرج من الطالع ملفوفة بمنشفة كحلية، تسقطها حين تتعثر بعتبة الغرفة، وآن ذلك يكور ثدياها كل شيء حولي، تذوب الزوايا في أطراف غرفتي، وتتقوس أذرع المروحة، وأطلق مثل ذئب كوّر الجوع ظهره عواءً يفطر سطح القمر، يطفئ القمر، حينها فقط تضيء شاماتها على برجي، ويتعمد طالعي بما يقطر من جسدها على جسدي بعد سقوط المنشفة.

أنام.. ثمَّ قدمان ناعمتان على صدري، ربلتا الساقين تكادا تنفلتان، وفخذان حلزونيان يصعدان ولا ينتهيان، لم تكن نظارتي الطبية في رأسي، أنا نائم، ونصف الرؤية هذه تصيبني بالدوار.

أفتح النافذة صباحاً، برد هامس يقرص كتفيَّ المتكورين حديثاً بفعل الرياضة، لا شيء يبدو غريباً هذا الصباح، لكنني خائف، وقلبي ينبئني أن أمراً ما قد

حدث، أغسل أمام مرآة الحمام وجهي، وأجد البيتَ، كل البيت، منقوشاَ بما تهيء للزوال.. هذا ليس عدلاً يا إلهي.

نصفُك المرتبُ من السرير

كان عليك أن تكونين هنا

في النصف المرتب من السرير

تخرج مؤخرتك إثر ركلة للغطاء

وتسكب زهرتُك نداها

انتظارا للسعة النحلة.

كان عليك أن تبكين على سيلفيا

وتفكرين إن كنتُ أشبهها أكثر أم زوجها الخائن هيوز

لكنني لم أكن خائناً

ورغم ذلك تركتي النصف المرتب من السرير

لتحلمي بقبلة تضعينها على جبيني

من على فراشك البارد في بيت الاسفنج.

كان عليك أن تساعديني الآن في النوم

بعد أن قست ضربات قطرات المطر الهائلة على رأسي

لكنك تسمعينها الآن وحيدة

أو تتجاهلينها بغطاء من الأغاني

محاولة تفادي حقيقة

أن المطر دوماً يحمل في هطوله الاختناق.

كان عليك أن تتذوقيني

بينما يُحبس العالم كله في المنازل

وتشاركيني سيجارة واحدة

تمنحنا موتاً أو حياة مملة وسعيدة.

على أية حال، الديكُ أذِن للفجر أن يبزغَ

والليل شارف على الانتهاء

وها هي القصيدة تنتهي

على نصفك المرتب من الفراش

دون تصويب إملائها من بعدي.

24 ساعة

ثمة قصيدة تذوي كل يوم

تُنشل في زحام، وتشظيها ثرثرة

تبدأ في التلاشي مطلع الفجر

وينثر هدير السيارات في الليل فتاتها على الوسادة.

ثمة قصيدة عظيمة انتظرها كل يوم

كأن تكون عن رجل وضع كرسيه في غرفة

وأطلق خطبة حماسية تبدأ بحرق ورقة

ثم قال: سواد النار يذرى، في عرض مباشر للعدم.

ثم قال: سواد الكلام يذرى، تطويه وقفات من الصمت.

ثم قال: وهذا السواد يذرى، سواد خطبة تلقى بلا حشد.

ثم نام الرجل، وكان سواد القصيدة يملأ من بعده المكان.

ثم قصيدة عن الجلوس في المضمار

وافتراش قناعة بلا جدوى اللهاث خلف النهاية

عن الشاعر الذي يقذف النرد في النهر

ويعود إلى بيته حافيا

لا طعام لديه ولا غد

لكنه أمام مرآته ملامح

وأمام نافذته انتظار

وأمام حبيبته كل شيء.

وثمة قصيدة عن القصيدة

عن لحظة مرعبة كهذه

تبدو بها الأشياء أسهل مما ينبغي

وتقترب المسافة من المرأى ولا تصل.

فيحضر الطيش والنكران

وتبدأ الحكاية:

هذا الرجل المتعب أنا،

الحبل الذي يسحبه النوم من طرف، والشعر من طرف

الرجل الذي أحب حتى استنفد كلماته

وجلس بعد منتصف الليل محبطا

نشر حوله عشرات الفراشات

صبغ الإنارة بالغشاوة

والخلوة بالأوهام

استعاد شجرة الأمس وقطف منها الظهيرة: كانت الوكالة باردة، والأخبار ساخنة ورأسي بلا دماء

سحقت عقب السيجارة وشربت رشفة شاي من ورق مقوى

نزلتْ ستائر على عينيَّ واختفى النور

عندما دخلتِ من باب الأمس إلى حاضري

وقلتِ: يمكنك العودة الآن إلى البيت.

أحبك مكسواً بالشقاء

حينما الهواء اللزج يهبط ثقيلا، وتزم الشمس شفاهها على الضوء، فتطلقه كلمات نابية، أتأرجح في الطريق، أتوارى عن السابلة القساة، تسعل رئتاي السقم على الرصيف قيحاً أصفرَ..

كنتُ أحبك حين أمضي بلا لون، ويهطل دمعي بلا ملح، وأطالع المفقود مني فأجدك، فتجلبين ما أضعت، وتجالسيني على منحدر صمت في العتمة، نلون الريح إذ تمر، ونرتب صفيرها بإيقاع نشاء، من هنا أو هناك نفعل.

أحببتك مكسواً بالشقاء، تسقط الصور من عينيَّ، فأرى ظهرك مشدوداَ عوده على واجهات المباني، ويدُك ممدودةٌ، فأسحب قدمي على شارع وأقول هذي يدك، وتلك أصابعك سأقبضها حتى أصل إلى حيث **كنتِ**، هنا أو هناك، عارية في فراشي.

كانت شوارع المدينة غمامة من يأس وخوف، صدى الثورة يقدح في الألسن الهامسة، والعساكر الخائفون؛ يلمع الموت على معادن بنادقهم. في ذلك الوقت الذي خفتت به الحياة، وسقط ظل قبر من الجسد الهزيل وراءه، لحظة تتشظى بها الروح بين عالمين، تكون عشباً على واحد وغابة على آخر، وتصير أسمالاً وعطب تصادم للعوالم.

في تلك اللحظة **كنتِ** تولدين، ومن وشاح واسع وأبيض، يرتفع عمران وتخفق أجنحة طيور مسالمة، كأنك الوطن الذي خطه الثائرون على الجدران، وكل شعارات الثورة المنتظرة. كنتِ تفردين ذراعيك وتتلين على مسامعي الكلمات صلاة عميقة، **وكنتُ** أخشع مثل مؤمن لا يجادل.

أحببتكُ في الأيام الطويلة، كالساعة الأخيرة من يوم عمال المناجم، حين حدَّقت بيَّ المسافة بشماتة، بعينين منتصر يطالع الأسرى، وكنت أسدل جفنيَّ على الاشتياق حتى أنام، واصنع من فضاضته انتظاراً، ومن الانتظار افتراضاً تمرين فيه من عتبة الدار إلى فراشي، وتطبعين على جبيني ما تيسر من قُبل.

أحببتك ماضياً مررت فيه على ثقوبي فصار الصفير والتأمت، وحاضراً بُعثتِ به عليَّ نبياً فامتلكت هداية ورضا، وغداً ظننتُه ملوناً ستملئين زواياه، لا تطارحني على أرضه الحمى، ولا يقوض عينيّ ضوؤه أو ظلامه، حتى كساه الزوال كما الشقاء كساني.

إدراكٌ متأخر

عندما أدركتُكِ، كنتِ نائمةً، متعبةً من المرحِ الشقي والدمعِ المشاغبِ والهباءِ الملون. ثمةَ رقصةٌ لم أكنْ أعرفُها، لا رقصةَ المذبوحِ ولا رقصةَ البهجة، رقصةٌ للوقتِ الذي يمضي ولا يمضي، تخرجُ فيه الكئابةُ من سكونها، وتمدُّ يداً لتضبط إيقاعَ الفراغِ، وتخطو على العدمِ كالرسمِ بالضوء. تأخذين يد الكئابة، ومثل مرآة تنسخين خطاها، تسرقين من الشعورِ جوهرَه وتصبحيه، وكأن اللا شيءَ سلعةٌ تُحملُ بين أغراضِك.

ماذا سيفعلُ الآخر، وكيف يفهمُ، أنَّكِ كالقصيدةِ لا تُفسرُ، وأنّك طاقةٌ حرةٌ لا تُفنى ولا تَسكُن، مثل كُرةِ مطاطٍ تنطلقُ وتَضربُ الجدرانَ كلَها، تقفزُ بوجه الرامي، وتَهربُ منه في العتمة.

ماذا سيفعلُ ليقرأ صمتَك حين تستيقظين مرحةً وأنتِ نائمةٌ على غصةٍ، وكيف يهتمُّ دونَ أنْ يَغضب، ويرتاحُ دون أن يُحصي الأسئلة.

هل سيفهم، أنَّكِ المعنى بلا معنى، وأنَّكِ السطرُ الفارغُ في القصيدة، يصفُ الفضاءُ كل ما لا يُرى، يُرتبُ نفسَه وفقاً لمطلعِ النصِ وخاتِمتِه. هل سيفهم أنَّكِ تقفزين بين الأولِ والآخر، وبين النارِ والفردوسِ، دون أنْ تكوني أي شيءٍ من كلِ هذا وذاك.

لا أظنه سيفهم..

اشتياق بارد

ثمةَ وحدةٌ باردةٌ تصدحُ الآنَ في الجوار
يسيلُ دمُ الاغنيةِ فلا يُدنسُ الوقتَ بالقلقِ أو المحبة
باردٌ كغصنِ خريفٍ يستعدُ لنفضِ أوراقِه
أكتبُ لكِ.
ثمة بذورٌ غريبةٌ منثورةٌ في صدري
تنمو الحشائشُ الضارةُ تنموُ في جميعِ الفصول.
أشتاقُ لأشياءٍ لا أعرِفُها
لها شكلُ رغبةٍ وتفوحُ منها رائحةُ الحركة
وحيدٌ، مثل عاجز لا خطوةَ له على هذه الأرض
ولا أفقاً في أقاصيها ليقصدَه.
تؤلمني الحيرةُ والسكون
ثم أصحو على الألمِ الذي تركتْهُ طعناتُ الفراغ
وأكتبُ لكِ.

حرمان

(1)

جائعٌ لأكتبَكِ مجدداً

أيتها الربةُ المتلاشيةُ في الظلام

الصوتُ الذي استأجرتهُ من الآلة

والصورةُ التي تجيءُ وتذهب

على كلِّ نقيضين عرفَهما العالم.

جائعٌ لأمضي بكِ مرةً أخرى

من التساؤل عن غربةِ عينيكِ وشرورِهما

من الغزلِ عن بعدٍ وأنتِ تنعمين؛ بيدِّ الحقيقةِ تمرُّ في شعرِكِ، يُغلفك قميصُها أزرقُ عابقٌ بالشهوة.

من التفرسِ بأسوارِكِ البشرية، ومواضعِ الملحِ التي تصنعُ الخارطةَ لطريقٍ وعرٍ إلى بابكِ المغلق.

كنتِ مجنونة، وللجناحين في صدرِكِ هدأةٌ كلّ ليلةٍ أو اثنتين، مستقرٌ على سرير، أو نعظٌ لا يستعينُ بأصابعِ الوحدة. تهيمين بأغنيةٍ وتثملين، راقصةً في العتمة لا يراكِ سوى حلمُ رأسي الجائعِ الحسود.

جائعٌ لأمضي بكِ مرةً أخرى

من صياغةِ الأسئلةِ الطويلةِ للفوزِ بأجوبةٍ قصيرة

من كتابةِ القصائدِ بجُملٍ أقصرَ لتُعجبَكِ

حين رأيتُ انفراجاً صغيراً ببابِكِ، وكانتْ الأرضُ مفروشةً بالأقفال.

يومها قلتُ أمضي

أراهن باللغةِ والانكسار

بالرغبةِ التي شكلتْ وشماً، هيستيريا من النداء محفورةٌ على وجهي.

ومضيتُ

والآن جائعٌ لأمضي مرةً أخرى

خائفٌ من التشردِ حولَكِ مجدداً، ومن أيادي الحقيقة.

(2)

تهزُّني حاجةٌ عمياءُ صدقَّتْ كذبة

تهزُّني وتنتظرُ الثمارَ تضربُ رأسها

تهزُّني الغبية، أنا الشجرةُ الصيفيةُ في الشتاء.

عاجزٌ

ابيضتْ الأعينُ في يدي

وردَّتني الحقيقةُ إلى حلمي،

سكناً أخيراً كي أرى الحاجةَ فيه.

في الحلمِ تتضحُ الواضحات

تصبحُ الاستعاراتُ ساذجة، وتحترقُ الصورُ

مثل أخرق حملَ مصباحَه اليدوي ظهراً

رفعَه إلى الأعلى ليضيءَ سطحَ الشمس.

أخرقٌ

سال لعابي على كلمة

قلتُ: أنفعلها؟

قلتِ: لمَّ لا؟

فأشرعتْ يداي بالكتابة..

تنام الورقةُ الساخنةُ في حاسوبِه، تتوارى تفاصيل جماع المكتوبة خلف معايير الفن، تبردُ في شاشةٍ سوداء. ورقةُ الأخرق، تكتبُه بالدمِ والصداع، وتكتبُكِ بالرمل على شاطئِه الهائج.

(3)

مبتورة أذرعُ الشعر

تسخرُ من وهمِ أصابعِها الحقيقةُ

تفركُ فرجَ حبيبةِ الشاعرِ أمامه

فيقول نفسَه باكياً

وتغصُّ الحقيقةُ بالضحك:

«أيها المسكين على فراشِكَ الباردِ ليلا، ماذا تُشاهدُ في تقلبِها الرتيب؟ ما تريدُ من الوسادة أو اللحاف؟ الملاك يمحو الوحوشَ من الزوايا، الملاكُ يسكبُ الدفءَ على صقيعِ خوفِكَ، الملاكُ يطفئُ بالصدى الناعمِ نارَ روحِكَ، الملاكُ يمصُّ في ليلِ اشتهائِكَ شفتي ملاكٍ آخر، لكنه بلا يدين على جسدِكَ الشاحبِ والواهنِ ولا شفاه، لا صدرا يلمُّكَ حين تنكسرُ وحيداً، ولا كتلةً تصنعُ خسفةً أخرى في الفراش».

قال الملاكُ النائم، وجفناه اللتان حجبتا عينيه، حُجبا خلفَ اللحاف.

أنا متعبٌ يوهنني عطشٌ شديد

أنا شاعرٌ لا يبلُّ النهرُ الذي أكتبُه لساني

أنا عاشقٌ تداهمني الحيرةُ ليلاً، يُثقِلُ قلبي فراق ثقيل، ويَلفح روحي وجعٌ شديد، وتنز من كل متاهاتي المحبة.

الاستمرارية

«يظل الجسم في حالته الساكنة

(إما السكون التام أو التحريك في خط مستقيم بسرعة ثابتة)

ما لم تؤثر عليه قوة تغير من هذه الحالة».

قانون نيوتن الاول

(1)

بلا مواجهة أنطلقت، مشيت، ومشى تيار الهواء بجانبي، سبقني سابلة وتوقفوا، تخلفوا سابلة غيرهم، وتبادل الشمس والقمر نوباتهما، وكنت مستمرا بانطلاقي.

العثار طريق، والشسع والضيق طريق، وبساط الجنون والخيبات صالح للمشي مثل غيره.

ينوح الطفل في الزحام والمطبات والمغريات، يلتفت، ويزرع في الخطى بذور رغباته المتساقطة.

يتذمر الشاعر، ويشتهي في اندلاع الصراخ وحدته، يمد للإرصفة يدا، للإشجار يدا، لكل ما ينأى عن الطريق يدا، لكنه يستمر.

تبكي الفتاة، وتذرف على ذراعين ملساوين دمعا باردا، تسيّر على خطوط راحتها الأنامل، تقول: هذه رقتي، وصوتي المخبوء خلف صديد السجائر، أغنيتي السائلة.

لكن الطريق لا يؤدي لغير الطريق، والخطوة تمضي على الصمت والنداء سواسية.

(2)

أسير على فراشي، يشكل النهار إعصار كلام كثير يضرب السكينة. على الخراب أسير، ولا متاع في السير سوى المحبة والكرامة.

يهدأ الطفل، وفي مسقط ظل آمن على قدر قرفصائه، ينام.

يجتمع الشاعر بالفتاة، وتنقسم القصيدة فيهما..

القصيدة:

أحبك بقوة الانكسار، بشدة القلق والتعب، بطول الخطى، ولا جدوى المسار الطويل. أحبك راكنة إلى النفس، خفية مثلي خلف الغشاوة، ومتعالية بالوحدة النافرة.

أحبك بقوة الاختلاف، بلمسة الآخر الغائب، المماثل بالجوهر والمخالف شكلا. أحبك سائلَين على نفسينا، كأن أكون منديلك وتكونين مرهمي، وأجمل جفنيَّ بسوادِك، حتى أكون أنثاك. وأحبك جائرَين بتقاطعنا، كأن أكون سوطك وقيدك ومُلهاك، أجرحك بفحولتي، وتقضمينني ببربرية.

أحبك بقوة الحزن، بعمق المستحيل، ووعد الموت، أهمس: أموت بِكِ، تقولين: عِشْ لتحبني، ثم نسخر من أصل معنى الحياة.

يخلد الشاعر للنوم معه الفتاة، تنام الحبيبة، ويواصل الطريق بنا مسيره.

(3)

كنصل يطعن في نقطة واحدة، تفقد الخطوة لونها، ينفذ الدم عبر التراب، ويبقى المسير قدرا، حقيقة واحدة لا تنتهي، على طريق بلا وصول.. لا شيء ذو معنى.

التي لا تسمى

كانت الظهيرة رمادية والكلام غائباً، عندما عرفت، كمن يتلقى خبر نهاية النهايات، أو يخرج من هاوية باليقظة، أن لا اسم لكِ، وأن كيانك بلا صفة.

اجتررت اللغة، تعثرت بالتاريخ جيئة وذهاباً، قرأت اسماء الآلهة وبلغات منقرضة، فلم أجدك. أعدت حكايتك على رأسي بالعرض البطيء؛ فكان شيء منك نجماً، وشيء منك وحشاً، وشيء ملاك. رأيت حصاناً مجنحاً في الاساطير وقلت: أنتِ، رأيت ظل شبح في غبار النيازك وقلت: أنتِ، ورأيت حجراً إن لامس الماء أضاء، وان لامس النار تلونت، وإن لامس الهواء أطلق الهواء نداء ولم يسم المنادى..

ذهبت إلى إفرادك، وناديتك من كل الأماكن بمسمى:

قلت: أيتها السماء، وكنت متعباً، كان الطريق إليك طويلاً، تكدست عجلاته تحت أكداس الغيوم، فمر شعاع أصاب عينيَّ بالصحو والنور.

وقلت: أيتها البهجة، وكان الدمع في وجهي قد خط على كل جانب مجرى، فتكسرا، وسرى معناك عبر نفسي فأمنت، وانبث منها هالة تضج بالإلوان.

وقلت: أيتها الدراية، وحملتك كتاباً، كانت صفحة منك آية مقدسة، وصفحة منك قصيدة حب، وصفحة منك طلسم، وصفحة منك فيها سر النشوء، قرأتك، وتلوت صفحاتك ساعات وساعات فلم تمنحني الدراية سوى الحيرة.

ضجرت فناديتك بكل ما أعرف: أيتها الشراب والطعام والغطاء، أيتها الصلاة والهداية والخطيئة، أيتها النوم والصحو والثمالة، أيتها الرغبة والغريزة والجمال، أيتها القصيدة.. في أولها وحيرتها ولا نهايتها، في معقولها ولا معقولها، في بحثها عنك وتصويرك وعجزها.

بلا مسمى تساقطت على أعتابك الوشايات، واصطدمت بأسوارك الأقوايل، وسموت بنفسي نحوك محملا بالنوايا، دخلتُ صندوقك الصغير، حيث تجمعين الأسماء، ظننت للحظة أن اسمك اسمي، ناديتك: يا أنا، فرحلتِ.

الضوءُ وهالته

(1)

قبل أنْ يجري التعبُ حبراً في العروقِ الخفية
قبل أنْ يفتحَ الصبحُ عينيه على جفنيَّ الناعسين
تبدأُ لحظة اسمها بداية، فافقدُها
ثم يتوالى الفقدُ..
كأن بضائعَ الليلِ على أرضِه السوداء
تَهوي مع الصبحِ حتى عتمةٍ أخرى.
قبل التفكرُ
قبل هبةِ الصمتِ المتنامية في المكان
أدورُ حولَ لحظةٍ، وتدورُ معي حياتي
ثم أراكِ في قلبِ الإعصارِ
منكِ تنطلقُ الحركةُ
وإليكِ تعودُ الاشياء.
يدورُ حولَك ما لي
كأسُ الشاي أمامَ القلق
والأرقُ بجانبِ النعاس
قوسٌ من الحزنِ والضحكِ والبلاهة
وقوسٌ من الورقِ والكلماتِ والسجائر

(2)

في المشهدِ شاعرٌ متعبٌ

سبقته الأيامُ كثيراً

وضاعتْ عن عينيه صورةُ الزمن

جلسَ على الهواءِ ليُحصي ممكناتِ الفراغ

كانتْ يدُه اليمنى تعلو وتنخفض

وعيناه تطالعان آثارَ الحاضرِ في التراب

لا شيءَ في الوراء

لا نادٍ للمتخلفين ولا جوائزَ للترضية

لكنَّ الأفقَ كان يسيرُ

حين التفتَ فلم يجد المرأة التي قالت له ذات يومٍ: أنا الضوءُ يا فيئي.

(3)

في باحةِ الزمن

أمطرتْ على رأسي غيمةٌ

كان الزمنُ قد مضى

وأرضَ العدمِ صارتْ منزلاً

وكنتُ مبتلاً كالعشبِ، وهناً كالعشب.

في الطريق إليك

في الطريق إليك، تبدلت مواسم، ولدت نجمات وقضت أخرى، خارت أحلام صغيرة، رغبات ملونة، توافه وترف، وكان وحده الحلم الكبير الذي يقود الطريق، يطوي التفاصيل ويضع شكيمة بين فكيَّ فأجري.

ولدت على هذا الطريق، أصابتني الرماح، وغرقت لو لا أن حبلاً من الوصول المتخيل شدني، كان الطريق عرساً من الوحوش والمعاتيه والحمقى، وكانت العثرات تقضم مثل مصائد الغزلان بي، وكنت أجري.

كبرت على الطريق، نطقت باسمك ثم جاءت الكلمات حشداً، جرحتني حقيقة غابت عن حياتي الأولى، كان سكينها أقبح مما قيل عنها، لونه صدأ ولمعانه نار، ثم صمتُّ بعد أن أثخنتْ بي، وخطَّ نصلُها على جلدي خرائط، وكنت أجري.

وفي الطريق عندما كنت أسدل جفني على التعب، لم يكن في هدوء عتمتي غيرك، جالسة عند طاولة صغيرة في المطبخ، تشربين كأساً من الحليب، وتسحبين أصابعك على الهواء فلا ينجرح. كانت صورتك تنهضين من الكرسي ماضية إلى الباب كأني عند مدخله، تحرق الساعات نحو الفجر، لأجري.. فأجري.

رأيت في الطريق سهاماً تائهة وعواطف يائسة وأنهراً مرهقة، رأيت أن الغرف حدائق السجون، رأيت أسرتها حرية مؤقتة، ورأيت الحياة عادة سيئة ندمنها كالمخدرات والكحول والسجائر. وكان كل ما أرى يتساقط أسمالاً، وعفناً على الطريق.

كنتُ أنجو كمن أفلتته الشراك وتجاوزته المجزرة، أنفض ثيابي، أمسح العرق المثخن بالغبار، واخطو خطوة أخيرة لأصل، غير أني وصلتُ ولم أصل.

المخذول ليلاً

يا حبيبة

تخيفني غربتي ممتدة في الزحام كهمس طفل

لا يرى في تشابكِ السيقان سوى غابة مظلمة

ويخيفني ظلي

حين يستطيل، وحين يتضاعف، وحين أتصاغر حتى التلاشي بحضرته.

هذه الوحدة تجرح

أريد من سعتك أن تغطيني

وتطفئ ارتجاف نبي سرى في جسدي

أضاع رسالته

فخلَّاه ربه غريباً معقود القلب واللسان.

يا حبيبة

أنا صغير جداً

أخاف الكلاب السائبة والزرع اليابس والشوارع الفارغة

أخاف المحبة والكراهية،

حين تلمع أنيابها المتعطشة لدمائي الزهرية

أخاف كل شيء وآمنتُ بكِ

بنغمتك التي تطابق إيقاعي

بذلك المجهول فيكِ، كأنه يد تروض الوحش جريحاً

وتمنحه معنى الملاك

وبصوتك المشموم كبخور جدة

والمنساب في الروح كدخان تفرقه أصابع.

فلا تصدي عني، ولا تخذليني

لو ترين الليل بعينيَّ لأغلقتِ الباب

ومنعتني المغادرة.

لو ترين الأعمدة الطويلة والنحيلة،

الشاخصة كأعواد مشانق قديمة

غابت حبالها،

وحضرت حولها الأرواح لائذة ببقعة الضوء في العتمة.

لو ترين الأشجار ظلالاً، تتحرك خلف عباءة من الغبار المتوهج

وتسمعينها كما أفعل، تهدهد بصوت ذي حزن عظيم.

لو ترين ضآلتي في الليل، تخطف من زاوية إلى زاوية

كورقة ترسلها الريح بين عربتي قطار مسرع

وكيف حين أعود

يضج رأسي بنحيب صلاة ضائعة

ويتعطش ساقيك ليستقر خفيفاً عليهما

لما صددتِ عني وما خذلتِني

رسالة من الجحيم

في هذه المدينة السيرك

حيث يلعب الجميع دور مساعد الساحر
يصطفون أمام الهدف وينتظرون السكاكين تخطئهم
ليبحثوا عن النجاة في اليوم التالي
ليس من السهل أن أنجو وأعشق في آنٍ
أن أكتب القصيدة بيد وأحصي الشراك بالأخرى
ولا من السهل أن آخذ لون الحياة وأمنحها لوني.
كطريدة أمضي
أتخطى الحدائق وأقطع منابت الأشواك
أعقد اسم حبيبتي على لساني
وتبذر بقية الأسماء في روحي السواد
ندائي على سائق الباص نباح
صرختي في الكابوس نباح
هذه الشكوى نباح
والشعر سكتة فاصلة بين النوم والإعياء.
أكتب في رحلة البقاء قصيدة
كرسائل الجنود إلى حبيباتهم.
ألملم هشاشتي فتصير كومة
أسكب عليها: تلاوة المؤذن قبل الأذان
بكائيات الجعفريين على ذبيحهم
حيرة أمي وآلام فاصلها

وصمتكِ في الليل قبل أن انام.

أكتب

كلما اقتربت من العالم خطوة رأيت ندوبًا جديدة على محياه، ثمة ناب أسود يرهب الضوء حين يفتح العالم فمه، وثمة خصلة رمادية تنزل على كتفه، أكثر غموضًا من شعر السحرة وتخلو من هالة الأنبياء.

على طريق العالم أحمل صورتك في متاع خفيف، أصنع من الصورة وسادة وأمسح بها الوجع وأخلق منها الرفقة حين يستوحش الطريق.

ثمة حديث طويل يتسرب من تشققات شفاهي، يتجمع أحيانًا فيتكور وأغص به، ويتقطع أحيانًا فتسقط منه جواهر المعنى. ثمة حديث يقال بنفس واحد أطول من طاقتي، يستهلك لغة كاملة ويطلق الكثير من الصرخات، حديث القصيدة التي تشتعل بنداء ولا تنتهي، تخلف الكلام حريقًا تنضج تحتها جلود الأسى والخذلان.

وأبكي..

للدمع مساحته الأثيرة في الورق

كلماته الشفيفة ومعناه الثابت عبر الأزمان.

وللدمع حواريته الغائرة في النفس والمطرزة بالحقيقة: أشتاقك في وجه كل امرأة يحمله الهواء الفاسد غبارًا جارحًا إلى عيني.

أشتاقك في صور الأجساد التي أقلبها قبل النوم.

أشتاقك في نعاسي حين يأتي مبكرًا، وحين يستفحل الأرق.

أشتاقك في الصباح كأس حليب محلى بالعسل،

وفي النهار قيلولة تحرسها يدك من الكوابيس،

وفي الليل ماء أريقه فيك وكدمة ترسمينها عليَّ.

أشتاقك في الأغاني، في القبلة التي تذوب مع الكلمات، والبهجة التي تعلو مع الأوكورديون، والحزن الذي يخلفه التشيلو، والسلام الذي يفشيه البيانو.

أشتاقك في قصائدي، في أحلامي التي أثثتها بصورك، بعريك، وحزنك، وضحكك، وبلاهتك.

أشتاقك في تعبي، حين يخذلني جسدي، وتمضي خطاي إلى الهاوية ولا أجد يديك في السقوط.

صورةٌ مثلى

ينضحُ الكحلُ من الفضةِ، ويهبطُ الحريرُ على السجاد. للبخورِ في ليلِ الشرقِ ما يفعلُه الأفيون، أدخلُ الخيمةَ عبداً وتضطجعينَ سيدةً تُمسكُ بالسوطِ بقبضةٍ مرخاة..

تَخلو المعابدُ على الشواطئِ، تنامُ قراطيسُ القضاةِ والفلاسفة، تنامُ الرياحُ والغيومُ، يختفي العوامُ والتجارُ، لكنَّ تماثيلَ الغرب تتهامسُ بشفاهٍ صخريةٍ، تشيرُ بأصابعَ عملاقةٍ نحونا: إنَّهما إلهان يتضاجعان، سيملئا المدينةَ بالمعجزات.

(2)

على سريرِكِ الضيقِ كنتُ أنام، وأنتِ منهمِكةٌ بالإصغاءِ إلى صدري، وقياس زوايا الميلِ في رموشي الطويلة، واحصاء المساماتِ على جبيني.

على سريري الواسعِ كنتِ عاريةً، خيطاً من العانةِ يسرحُ على بظرِك، وقطرةٌ من الندى تُسقطُها الزهرة.. غُيبنا، وصار الشرشفُ الأخضرُ كالعشب رملاً، وقتلَ الصيفُ النحلة السكيرة.

عن حزنِك

الشرارة لا تموت، قالت الفيزياء إن الطاقة لا تفنى، ومثلهما الحزن لكنه يتشكل.

لحزنك معطف ترتديه الرياح، ثقيل، تصنع أذياله صوتاً على الحصى. لحزنك عطر لا يطفئ النجوم، ويتداخل مع الورد في الربيع، فيسقط الندى على الطين. ولحزنك ذاتٌ شبحية، تتلبس الظلال، وتضيع في الزخارف، وتنسل إلى الأغاني.

أحببتُ حزنك طافحاً في صدري، وجِسراً إلى روحي، فالفرح المسرَف يقتل الأرواح ويستنسخ الدمى، وحبراً مسكوباً بخفة المصادفة، يصير غراباً، أو ثقباً أسودَ، أو قصيدة.

أحببتُكِ حزينة، خمرية بعينين عارفتين، وقلب يشع ضوؤه من الصدوع فيه، ويروي الصمت سيرته، وتشرحه الصور الساكنة، ولأنه يشبهني، ضعيف كدخان، وغامر كدخان، ينسل بعيداً في العاصفة، ويطوف في الفراغ مثل تنين

مجنح. أحببته لأني شاعر، ولأن القصيدة، تعرف بكأس من الحزن جدواها، وتنسف جدواها بكأس ثانية.

عن قميصِكِ

كان قميصُك

يستر القبح في الشارع

مفتوحةٌ أزراره،

وخلف قماشه العالم.

رأيت حمرة الغروب تسقط على تفصدِك، وترقص على تفاصيلك أرجل مسرعة..

يدك على الأشجار، تورق مثلما الأشجار

وتنساب الأصابع من بين الخرائب في البعيد

تنساب في السراب، تجر وسادة من الغيم إلى رأسي، وتخط في سقف السماء مطلع القصيدة

يدك، حين تخلع القميص، تكتب..

كان قميصُك

صوت وتفاصيل وذكرى

واسعاً

ألتحفه وأفترشُك

وأرضاً

أطأها حين أنتزعك منه

ما زالت الآهة تخرج ولا تخرج، تنفلت ثم تعود، تقفز من محل سكناها فتخنقني

ما زالت الرعشة، بعد برودة الأشياء، تحرقني

والقميص، حين تتسلل الريح إلى خزانة الثياب، وتفرِّجُ ضفتيه

يصطحب يديَّ إلى الكتابة

وداع مستحيل

كيف يهربُ الإنسانُ مما في داخله؟

سَقطتِ في يدي بعد أنْ أضعتُها في العتمةِ، وكنتِ تضيئين كجمرةٍ أنيقةٍ لا تُسرِفُ بالنارِ. صار لي عينان وقبضتُ عليكِ كما الأعمى على عصاه، وسِرتُ في الأيام ساحراً يُعلِّقُ الدهشةَ دبوساً على صدرِه.

تعثرتُ، فأسندني ضوءُكِ، وكنتُ أمسحُ على شعاعِه فيتركُ على راحتي اللمعانَ، وأرعبني خُفوتُكِ؛ كلما خَفضتْ النارُ رأسَها خَطَتْ العتمةُ نحوي. وكنتُ أبكي وتُشعلُكِ الدموعُ ثانية، فأضحكُ كالطفلِ إذ ينهضُ بعدَ سقطةٍ، ثم نواصلُ دربَنا.

وكان دمعي يقلُّ ونارُ جمرتِكِ تزدادُ خفوتاً، ثم فجأةً صحوتُ من نومي ولم يكنْ الصباحُ، وكان دمي يفورُ كالحمضِ، وحِرقةُ قلبي قُرحة نازفة. مسحتُ على رأسِكِ فخرجَ الدخانُ ولم يتبعْهُ ماردٌ، وسعلتِ ضوءاً يُشبه قبلةَ الوداعِ.

وفي الصباح التالي كان العالمُ رمادياً، وكانَ دخانُك يُغلف الحياةَ بالألم.

كيف يهربُ الإنسانُ مما في داخله؟

كانتْ النارُ تتسربُ من قلبِكِ رُويداً إلى قلبي؛ أنتِ تنطفئين وأنا أحترقُ، نفختُ فيكِ فلم أُشعلكِ مجدداً، وركضتُ بعيداً ولم أبتعدْ، كانتْ النارُ تهيجُ والعتمةُ تَكبرُ. كيف أهربُ من ناري وأعيدُ لكِ ضوءَكِ؟ لستُ رماداً، ولا أنتِ ابنةُ العتمةِ.. كيف؟

قصيدة الوداع

أو سيرة المسافة من الولادة إلى الممات

(1)

لتكن الليلة إذن
مائدة للعشاء الأخير، وورقة للقصيدة الأخيرة
وعلبة السجائر هذه جمرة للتخلي.
ليكن الوداع هامساً وبطيئاً
وحقيبته كبيرة
ولتكن الذكريات، كما يجب أن تكون، ذكريات
لا روحاً حية من الأمس
ولا حلماً ساكناً تحت الجفنين.
سأقول وداعاً
لزاوية الضوء المعد لصورة الصباح
ومعطر الهواء
والمرمدة المشتركة
سأقول وداعاً
للقميص الماروني
وغزل المسافات
والنصف الأيسر من السرير

سأقول وداعاَ

لمخفوق الشوكولاه

وعلبة النوتيلا

ورقائق الدوريتوس الحادة

سأقول وداعاً

لدرج الحلوى

وبسكويت السمكة

والمَصاصة الزرقاء

سأقول وداعاً

لكعب الحذاء المكسور

وعلب الأحذية الفارغة

وعلب الأحذية الممتلئة

سأقول وداعاً

لأيمي واينهاوس

ولانا ديل راي

وشارلوت كاردِن

(2)

لتكن هذه الليلة

ليلة الليالي كلها، ومرثية للسنين

لتكن ثقيلة كما يجب

كئيبة وحارقة للمعدة كما ينبغي

ليكن الألم عظيماً

خالياً من المواساة وغائراً في الأعصاب

ليكن طافحاً على الفراش وساطعاً في المرآة وجارحاً على الأرض

ليكن طويلاً إلى الفجر أو ما ورائه

طازجاً على يقظة أو معلباً في النوم

وليكن حاسماً وكاملاً

حتى يكون وجه الغد غائباً وفارغاً

قادحاً بالرعونة، وعاصفاً نحو الشِراك

قديماً وممحواً كذاكرة الشيخ

وميتاً كقلبي الآن

سأقول وداعاً

أيتها الحكاية القصيرة الطويلة

لعينيك الوقحتين

وبشرتك السمراء الدهنية

وشعرك العابق بفوضى من الروائح

لحلمتيك المؤرَقتين سأقول وداعاً

ولفخذيك المبللين أبداً

ومؤخرتك المكتنزة

سأودع عريك النائم

ونومك الشفيف كثوبك المُهرأ

نومك الملهم للشِعر والذنب والبكاء

وأودع شبقك الصاخب

وشبقك المكتوم

شبقك الغامر

وشبقك المغمور

شبقك ذا الأظافر والعضلات

ذا النهاية الصامتة

وذا السيجارة والحمام الطويل

وأودع الكثير من دموعك الساكنة في وسائدي

المشعة كقنبلة نووية سجادة الأرض

القاتلة في الأمس والقاتلة بعد هذا الوداع

(3)

لتكن هذه الليلة

آخر محطة معطلة

ومتر الطين الأخير في المستنقع

لتكن التفاتة الغد إلى أفق خالٍ

وليكن الأمس بعد الغد القادم

قطعة لا تسمو بمحبة

ولا تتطوح بالتساؤل

تتفاداها خناجر الشك، ويعفو عنها كراس الذكرى

لتكن هذه الليلة

الليلة الأخيرة للمحبة التي ستبقى

ولتكن نهاية البقاء المبكرة

باب التيه

يظن التائه، كلما رأى محطة، أنه أدرك المسعى

وصفة الشعر والنجاة

ستُدمى مؤخرتك النحيفة على هذا السرير، في كل ليلة تغرزها بلا حركة على السرير بحثاً عن امرأة لتقتلك، تجرح وجهك الطفل بأظفرها الطويل، وتزرع في رأسك المكتظ كخزائن الطلبة، أحلاماً يابسة وأنهراً خضر وجدراناً من الباستيل، لتلعن لحظاتِ السعادة، إن صدفة جاءت، وصدفة طالت، وصدفة غطت على الأيام.

ستمد سوراً في أرض بور لترتب قبورك، قبل أن تجد امرأة يتكور نهدها قمراً في ليلك البري، ويقطر ماؤها حين تطفو من قصائدك الطوال على فراشك، ستكون شبحاً أيها الشاعر وحفار القبور، قبل أن تلعب دور الذئب في عتمتها، قبل أن تسقط على عتبتها الحمراء ويقشعر شعرك الأبيض.

هي لا تكترث

إن سقط الثلج، أو أحرقت الشمس مدينة الرب صيفاً

وإن كتبت فجراً عن قبائل سمرٍ يسرفون بشرب الدم وكتابة الشعر والتناسل

هي لا تكترث

إن كنت تكتب بعد أن حركتك صورة في شاشة الهاتف

أم رمح عاج جاء من الوهم ونام في خاصرتك

ستثني فوق الحرير ساقها

تدير ظهرها لمرآة الخزانة

وتركن في الدرج القريب وردة بيضاء قبل النوم.

ويطول ليلك

وتستبدل مرة أخرى النساء بالأغاني

وتحمل وذر اللغة المذبوحة بالتكرار وتسير في الغرفة

لا أنت مسوس بجن تفاوضه على الرحيل

ولا أنت مدرك عبث ابتكار الروح من أغبرة الغياب

لذا دع الدم يسيل ليتنفس الجرح، الليل يدب ببطئه المعتاد عليك، والرحلة تستمر. هذه معادلة أنت كتبتها: أن الشعر لا يولد من جرح قديم، وكل قصيدة تحفر لك قبراً في نهايته، وكل قمر تعوي بليله يرميك جريحاً على عتبة الفجر، وكل إنصات إلى النفس يخلق وحدة مضاعفة.

استغاثة

قلْ أنَّ عينيك تحدقان بي

أن شفتيك ترتجفان في طريقهما إلى القبلة

وأن يدك على قلبي

قل ذلك وسأصدق، وإن لم أرَ

ولن أدري..

ما شكل بقعة الضوء المنعكس على زجاج نافذتيك

ما لون الشفتين الجائعتين

وما ملمس راحتك

سأصدقُ

أن العينين عَرَّياني وكَسَياني ألف مرة

قرئا قصيدة «على سحابة رجليك» لأنسي الحاج

بشيفرة مورس

وتركا خربشات للذكرى على أبوابي السرية كلها

سأصدقُ

أن الشفتين اكتنزتا العطش ليَرِدا منابعي

فشَرِبتا ماء حلقي وشَرِبتا ماء فرجي

وتَلَتا على مساماتِ جسدي حروف اسمي مراراً

بصوت من يناجي طيراً على كتفه

سأصدقُ

أن راحتَك البيضاءَ دافئةٌ

لا تحدُّها مادةٌ ولا تلتفتُ لمنطق

تنفذُ من الثيابِ والجلد والحقيقة

وتمسحُ على القلب مسحةَ الأمِ على رأس ولدها

فأطمئنُ

قلْ وسأصدقُ.. فلحظةُ الصمت الفارغةُ ورقةٌ بيضاء

مشحوذةُ الحواشي كسيف

إن تركتُها، ستقطعُ بها الريحُ رأسي

قصيدة

إلى حمدان طاهر المالكي وعبد العظيم فنجان وأحمد عبد الحسين وبضعة قليلة جداً من الشعراء

دعها تمر اليوم، واترك الصفحة البيضاء بيضاء، دع الكلام الكثير الراقص في كبسولة الدواء تحمله الريح إلى حيث آخر، ونم.

همُّك ساذج وجرحُك وهمي

حين ولد الإنسان كان لا يفعل إلا ثلاثة: يصطاد ليأكل

ويضاجع ليتكاثر

ويقتل ليتسلط

منذ بضعة مليون سنة لا هم للإنسان غير أن يبقى، وأنت تفكر بالخسارات، بانتصارات الدم، والسيوف الصادقة، والألسنة السيوف. دع الصفحة بيضاء ولُكْ الخبز ونم.

هذه بدعة أنت أوجدتها، أن أول إنسان كتب قصيدة كان يشعر بالوحدة، وحين قرأها على الأشجار سقطت من السماء قطرة فغسلت دنسه، وسقطت من فمه الأنياب فاستُبدلت هويته من مفترس إلى طريدة.

وهذه بدعة أن الشاعر غريب، وأن الثورة وحي نبوته، والحق شعرة بيضاء في مفرق رأسه.

فدع بِدَع الظلالة ودع الورقة البيضاء بيضاء، اسقط على لسان الفتاة حصرم الأجاصِ ونِكها، باعد بين سيقان مئة غيرها، أرقص تحت دش الحمام عارياً، كن إنساناً وافترس.

لكنك تبطل الخدعة كما في أفلام هوليود بالعبارة الأخيرة، وتستعيد قدرك، لعنة اللّه على قدرِك.

والآن ماذا تبقى؟ الحكاية لا تزال أسيرة، وهواء العالم الذي تريد أن تشفيه مسموماً، وهذا هو الإنسان كما ترى: مسيح يُصلب وعامة يتفرجون.

اعتراف

أشم في عُنقِك رائحةُ البحر

وأرفع على سريرك شراعاً مهيباً

أنتِ الخشبُ النديُّ بماءِ المغامرة

أحب أظافركِ حين ترسمُ حلماً أزرقَ على ذراعيْ

وأحبُ زهرتَك الدفلى حين تتفتح،

وحين يسرق النحل نداها فتستشيط ربيعا.

للأحذية ولعٌ كبيرٌ بقدميكِ حين تتقوسان وتنتصبان واثقتين بلونٍ حليبي.

ولعينيَّ ولعٌ كبيرٌ بعينيكِ حين تَلمعان، كأنَّ مجرةً لاحتها عدسة ذكيةٌ، تُظهرُ الألوانَ البعيدة، وتُخفي كل شيءٍ آخر.

ابنُ السماء

عندما كانَ الليلُ سريراً، كنتِ مجموعةً نجميةً تبعجين سوادَه بالضوءِ، وأنا الملاكُ أفرشُ جناحيَّ على طرفي الكون، وأبعثرُ غبارَه. ثمةَ ألوانٌ كثيفة، ومن تحتِنا الناسُ مشدوهةٌ، تحدقُ بالسماء تحتفل.

تنسحبُ جناحاي على نجومِكِ، يتساقطُ الريش، ثم يحترق، كاليراعاتِ مطراً مضيئاً، وتحملُ الصلواتُ الصاعدةُ السريرَ نحوي، فتنحسرُ جناحاي وتنمو يدان بيضاوان لم يمسْهُما أثيرٌ أو هواء، وأغرق...

ماذا يريدُ غريقُ الضوءِ من النجاة؟

كنتُ أبعثرُ الأحلامَ في رأسي، وأمرُّ على أسرةِ الكونِ وكلِّ وسائدِه، بحثتُ عن سعةٍ لكِ وكانتْ الأرضُ ضيقة، أحلامُها تُسرِّبُ التفاصيلَ ووسائدُها تذوبُ قبل أنْ يرتدَ الزفيرُ شهيقاً، كنتُ محبطاً والآن يحررُ عجزي الضوء، يفرشُكِ تفصيلةً تفصيلة، طافيةً بأبعادٍ غير معدودةٍ واتجاهاتٍ مُركبة.

يغطسُ رأسي، يرتطمُ بنجومٍ منطفئة، شاماتٍ كأنَّها الوجهُ الآخرُ للقمر، تمرُّ يداي وتلمسُ ضوءاً ناعما، مرتجفاً، يُرطبُ ضفتَه العميقةَ خمرٌ مشع، يغوصُ أصبعي ويعيدُ نحتَها ذراعٌ صغيرٌ مهدب.

أحركُ ساقيَّ فيردُّهما موجٌ من الضوء، موجٌ لا أمانعُه، يُفرِّج بين ساقيَّ ويجتمع، يفركُني الضوء، ويمتدُّ الذراعُ المهدبُ كالرشف يحملُ بذرةً في رأسه، يحرثُني، فينبتُ نصلٌ من الضوء، نصلٌ يرتجف.

غريقُ الضوءِ ماذا يشرب؟

الأرضُ قاحلةٌ، وأرى كيف تتعرقُ الأبنيةُ رملاً، وتتشققُ قرب الشفاهِ الكؤوس. كلما مسستُ الماءَ جفَّ في يدي، يتصاعدُ البخارُ في وجهي كأنَّ السرابَ ممسوس، وكأن يديَّ خدعةُ الساحر.

الآن أرى الضوءَ ينبع، وإذ ينزل ساقطاً يرش نثاره جسدي. زاحفاً أقصدُ النبع، يسخنُ تحتي الليل، يحرقُ خطوتي، فأشقُّه بالنصل، نصلُ الضوء، وتنفتحُ السماءُ فوقَ الأرض، فرجاً مضيئاً وكأنَّ المخاضَ قد جاءَ السماء.

أسجدُ عند النبع، أغرفُ الضوءَ وأشربُه، ثم أغرفُ الضوءَ وأشربُه، ثم أغرفُ الضوءَ وأشربُه، يزدادُ الضوءُ ضوءاً، يدفعني الضوء، وأسقطُ مغشيا على ظهري.

ماذا يفعلُ الضوءُ للضوء؟

كنتُ أصحو، وأطرافي تنفرُ العروقُ خضراءَ من جلدها، خارطةٌ من النبضِ الأليمِ ترفس، حبيسةُ تداعي الجسد، كلما استكانتْ؛ تركتْ أثرَ السجينِ على جدرانِ سجنه، أخاديدَ ذبولٍ وخربشاتِ قِدَمْ.

يمرُّ الضوءُ في جسدي، يشعُّ صدري، إذ يخيلُ لي أنَّ قلبي صارَ شمساً، وفي رئتيَّ يحترقُ الهواء. تهبطُ النجومُ دفعةً واحدة، تنفذ عبري أذرعٌ منها، تحملُني كجثةٍ مخمورةٍ يتموجُ سطحُها الضوئيُ كالبحرِ في الأحلام، موجةً إثر موجةٍ فوقي، وتقتربُ، تلامسني ويمرُّ عبرها النصلُ ساطعاً بشفيفها، موجةً إثرِ موجة، ينزلقُ النصلُ ملتحما بالضوءِ لا يجرحُه، يتماهى مع الضوءِ صاعداً أو نازلاً، يرتجفُ الشفيف، يسطعُ مرةً ثم يخفت، يسخنُ مرةً ثم يزدادُ سخونة، ينفجرُ النصلُ ويضربُ الضوءُ السماء، ضربةً واحدةً ثم ينطفأ.

قالتْ الناس، إنَّ السماءَ انجبتْ رجلاً، في لحظةِ ضوءٍ هائلة، كان مشدوهاَ ينزُّ جسمُه الماء، ويهذي: أنا حبيبُ الضوء، والدُه وابنه، شربتُ من مائِه فولدتُ، وشربَ من نصلي فانجبتُه.

حكاية جسدين

على فخذك وحمة سمراء كعبارة أولى

تجر خلفها الكلمات: غرزة الجرح على سبابتك

والشعرة الغريبة في محيط الحلمة.

جفناك مسدلان وفمك مفتوح

هذا عنوان الحكاية

حكاية الجسد الذي استلقى

فأطفأ عينيه

وأطلق يديه آمناً في فراشه

في المرمدة سيجارة مؤرثة ومنسية،

تطلق دخاناً لا تعكره الأنفاس البطيئة،

وفي الوسادة صخب كبير، وذاكرة قريبة ومكتنزة.

جفناك مسدلان وفمك مفتوح وبطنك ترتجف

إنها زهرة اللذة تطوق نفسها، تتصلب مثل فخذيك المشدودين بقوة على أصابعي، حتى نضوج الثمرة وتوقف الزلزال.

في الغيبة

حين يقضم الذئب زهرةً

ويُفترس الجسد بعين صقر محدبة

تضمحل التفاصيل

ولا يبقى سوى بندول من المجاز.

جفناك مفتوحان وشفتيك مجروحتان وذكورتي في فرجك

تمتطي الغواية فرسها وتعدو

يهمس الجسد إلى الجسد: في البدء كانت الغواية ولم تكن السماء، صارت الغواية نجماً، وصار كلما نفذ ضوءٌ فاض منكَ الماء، ومدت الحياة جسراً بيننا.

في العتمة الآن، أنا وحيدٌ مثل باب موارب، تطوقني الوحشة كغابة مهجورة، وتجلس الرغبة قربي مثل كومة صوف تموءُ وتتمطى.

مناجاة الجسد

(1)

منذ أسبوعين وهذهِ الفرشةُ باردة

منذ أسبوعين وأنا أنقلبُ نصفَ انقلابٍ على سريري

أحلمُ نصفَ حلمٍ، وأبكي بعينٍ واحدة.

منذ أسبوعين والكلماتُ تتيبسُ في الربيع،

العطرُ يموتُ قبل فواحه،

الريح فاسدةً منذ أسبوعين، والشمسُ كالفرشةِ باردة.

(2)

هذا قميصي مطويٌ قربَ الوسادة،

هذا بنطالي على الكرسي

وذا سروالي على أكرة الستارة.

هذا جسدي معدٌ على انتظارِه

هذا عَرقي ينزُ من الوقتِ

هذا نبضي يتفصدُ من عروقي

وهذهِ عروقي تقيدُني بالسرير.

(3)

ادخلي الغرفةَ كي يهربَ الليل

اخطي على الأرضِ كي تنثرُ السماءُ نجومَها

المسي طرفَ الفرشةِ كي تحترق

ومن قلبِ الحريقِ اخرجي نحوي.

ضعي نجمتين على الجدار

واستبدلي عينيَّ بنجمتين

علقي نجمةً على عانتِك

وارمي نجمةً من النافذة

سنكون إلهين في سماء.

(4)

القبلة ختمُ دمٍ قان، القبلةُ سيلانٌ متطاول. أشمُكِ تينةً ناضجة، أمسُّكِ سوراً مكهرباً، وأعتصرُكِ رجراجةً كبرتقالة. القبلةُ هيجانٌ مضطرب، مشردٌ همجيٌ وجائع. أتجاوزُ السورَ واحترق، أمضي عليكِ لصاً خائفاً، أمضي عليكِ متعجرفاً لا يخاف، أمضي عليكِ راكضاً وساكناً. القبلةُ شهوةٌ لا تنطفئ، القبلةُ بئرٌ لا تنضب، وشفتاكِ رغيفان لا ينفدان. ألتهمُكِ لقمةً بعد لقمة. القبلةُ أسنانٌ صفراء. ألتهمُكِ ابتلاعاً ومضغاً. القبلةُ توقٌ مشتعل. آسِرُكِ بصليبي العظمي، وأدقُ مسماري بعذق العنب.

(5)

في الحديقة قنفذٌ لا يخافُ، في عشبِها قرطٌ قديم

اللؤلؤُ يجفُّ ويمضي

الشمسُ الدافئةُ تطلعُ على جسدينا

رأسي على مؤخرتِك

ورأسُك بين ساقيَّ.

الأجاصة الخضراء

تثقبين غَمامة النعاس

وتنسابين فجراً

كخيط دخان أزرق

يعض على الهواء

يسرق سعته ويطفو

لا تشهقه رئة

ولا يبدده زفير

تنتصبين طفلة مشتهاة

كأجاصة خضراء

ترخين شفتيك

وتمحين وزن ساقيك

فيداعبان الأرض

ولا يطآن شيئاً

تثقبين غمامة الفجر مخلفة الضوء ستارة تسدليها.

لستِ عتمة، لكنك نصفُ الرؤية؛ ما تكمله عين العجوز في الحديقة

ورسالة الأميّ إلى حبيبته

تثقبين الغمامة ونهداك يحملان سر الاكتمال، وعيناك سر النقص

وتمتد بينهما مسافة طويلة كحيرة

مؤلمة كانتظار، وشهية كالطير في حلم جائع
تأتين، ودبقك يسيل، وكلماتك تنحسر
يتوتر كحبل القوس حياؤك
وتنفلتين كالسهم إلى عينيّ
طفلة مشتهاة كأجاصة خضراء
وأقطفك
أنا النسغ أيتها الأجاصة
والرئة أيتها الدخان
وعلى رقبتك الطويلة أنا العطر
عطر شبقك الجارح، وعطر براءتك المراوغة
ثمة نبضة هربت من قلبي إلى صدرك
هذه القشعريرة في نهديك أنا، وأنا انتصاب حلمتيك الفاتحتين
وعلى بطنك الوثير كوسادة، الممدود إلى المسعى
أسيرُ
ستعرفينني سخونة، وتعرفينني دغدغة
آهة تصعد، وقطرة تنخفض
شعلة تتقد، وماءً ينسكب
وسأكون بعد سكون الندى
نافذة، تثقبين شفيفها
وتنسابين منها وإليها

دخاناً أزرق

وطفلة مشتهاة كأجاصة خضراء

انطواء

قالت الفتاة

حين أشعلت جمرة وتنفستها

لتتذكرَ أن الثلج الذي صار أقفالاً على الأبواب

الثلجَ المتراكم في دفاتر الفتاة التي تحب وتبكي

ثلجَ الشوارع السرابية في البلدة المغلفة بأكياس الهدايا السوداء

لم يغلق النافذة

والحلم الطافي، كملاك طائش

سكراناً يجوب الليل بحثاً عن الساهرين

ما زال ينفذ من فتحة صغيرة في الباب.

قالت

أجلس في الزاوية وأشتم الكرسي وسط الغرفة

بعينين تحملان القليل من الحزن والكثير من الغواية

غواية الرسام المتقاعد للجدران

الرسام الغيور الذي هجر الرسم إلى النجارة

وما انفك يصنع الإطارات الفارغة ويعلقها

حتى ظنت الجدران أنها اللوحة

فتوقف الطلاء عن التساقط

وتؤرث الفتاة سيجارة أخرى

تحتضن كأس الحليب بالشاي وتنتظر الحرارة تمضي

«لم تكوِ شفتيَّ قبلة ساخنة، لم يعد قلبي يحترق»

وتتجرع القليل، كأنه كأسُ جنٍ لم يخففه الساقي بالمياه الغازية

أغنيةٌ تطوي أغنيةً

الصمت يمتد

والساعة السوداء على رسغ الفتاة تشعر بالوحشة

باب الرجاء المفقود

نضح بياضك من قميص أسود عند النهر. قلت هذا بياض غدي، حديقة الياسمين لبيتي، ورخام عتبة باب النجاة، باب الوصول، باب الرجاء.

تشكل البياض غير مرة، كان نورساً يهرب إلى دجلة خجلاً، وعِطراً خائفاً تبعثره ريح أول الشتاء، ومرآةً أرى نفسي فيها بذروتها وكمالها: الطفل والشاعر والحكيم والعاشق والفارس والوزير في آن.

وكان البياض يعلو مثل موج وينخفض، بفرحك وحزنك كان يعلو وينخفض، وكانت السماء فوقنا تختنق وتتنفس، والشارع يحلك ويضيء، والنبات يتيبس ويخضر، وأنا أموت وأحيا، حتى خرجتِ تحملين الفصول الأربعة، وخرجتُ مصحوباً بفرقة ملائكة حائرين.

ثم غمرني البياض وخضت فيه، قلت سأقصد مسعاي، ركبت دابة الهواء إلى حلمي، وكان باب الرجاء في المرأى، ورائحة الوصول تفوح بعيداً فلا يخطئها عابر سبيل أو سائل معروف. لكن الباب كلما قصرت المسافة ابتعد عن العين، وغاب منطق الفيزياء عنده، فمرور الزمن وزيادة السرعة لم تأكل المسافة، وعتبة الدار لم يصلها الخط المستقيم.

غدا بقميص أسود آخر، ستلتقفك عين، ويشي بك لسان، وتكتب سيرتك أسراب الطيور في هجرتها، فاسمع عنك أو أرى، وحين يقولون هذه الفتاة جميلة، سأقول هذا باب الرجاء المفقود.

خلف كل بابٍ، باب

كنتِ خاتمَ فضةٍ على بساط تزدحم فيه الخواتم، ولم يكن بينها خاتمٌ سواك. كانت حلقات المعدن ستارةَ دخان، وضبابَ شتاءٍ يغار على زهر فجره الأبيض، لكن أصابعي تعرف الفضة، كما تعرف النحلةُ درب البساتين.

وكانت عيناك فصيْ عقيق، صقيلين، أرى على مرآتهما شكل دهشتي، ثم غاب البساط واختفت الخواتم، ورُصف بين الفصين دربٌ يقود إلى باب، فسلكت الدرب.

فتحت الباب وكان خلف الباب حديقةٌ من ثنائيات، نصفها ليل تكتظ فيه الفراشات، ونصفها صبح تُدوزنُ القبراتُ لحنَه، وكان فيها طفلةٌ تمشي وتلعب،

جميلة وضحوكة وألعبان، وكان فيها فتاة تمشي وترقص، عارية وضحوكة وبريئة، ثم جاءت الطفلة من النهار والفتاة من الليل، فلمستا الأفق فانفتح منه باب.

فتحت الباب وكان خلفَه ساقيةٌ، وبضعةٌ مواشٍ وصوتُ أغنية بعيدة، وعند السِقاية، تسرح الفتاة الجالسة شعرها، والطفلة تداعب ظهر ثور يشبهني، اقتربت من الفتاة، ورأيت في حوض ممتلئ انعكاس باب جديد، لمسته فعبرت منه.

هذا البيت أعرفه، رائحة الطلاء ومواقع الثقوب على الجدران، وهذا السلم لا بدّ يقود إلى غرفة زرتها. قلبي يشجعني أن أصعدَ. وهذا باب أعرفه، وخلفه السَكينة والمسعى، فتحته، ورأيتُ كما يرى من استيقظ توه، أو كما يرى السكران، الفتاة والطفلة تجلسان على السرير، تنفصلان عن بعض وتندمجان، مرة كأنهما امرأة واحدة، ومرة كأنهما طفلة واحدة، شددت النظر فقال صوت غريب: اقتربْ لترى الحقيقة، وفتحت فمي، قال انتظرْ حتى ترى، وما أن كدتُ ألمس يد الفتاة حتى مسست باباً.

وهكذا.. كانت الفتاةُ (أو الطفلة) واضحةً عن بعد، غامضة حين اقترب، وكنت كلما افتح باباً لأعرفها أجد خلف الباب باباً، فيا امرأة بألف عالَم وطفلة بألف باب، سأجلس ها هنا، وانتظر.

خاتم يخلو من قوى السحرة

تعالي نبحث عن سر لنفشيه، كمن يحفر اسمه على غصن شجرة ويمضي، سر غريب يختبئ خلف الهواء المتمدد في أفق الليل، سر صامت يشبهك ومتذمر يشبهني، يشبه قبلة تنبأت بها الأحلام، وعرقاً بارداً فصدته الرغبة على جبين وحدتنا.

تعالي نسمع أغنية ونقرأ قصيدة وننتظر السر أن يأتي، أن ينجذب لشبيهيه فيأمن، وأن نفشيه بأمانة محصنة ضد المفاجآت؛ فنكتبه على زاوية كتاب الشعر ونكتبه على علبة السجائر الفارغة، نكتبه مرفقاً باسمينا، بمعنى الزمان المرتبط باسمك، ومعنى المكان المرتبط باسمي.

وتعالي نصنع سراً نحارب به الركود، قلقاً صغيراً وناعماً تصطك له أسناننا مشفوعة بالتبسم، ويهرول لأجله قلبانا فنتعب قبل أن ننام، وليكنْ السرُ قولاً محرماً أو دعابة ممنوعة أو تصوراً مرفوضاً عن الغد، الغد الفارغ الذي ينتظره الأحياء، ونرفض فراغه بالامتناع عن مواجهته. أو ليكن خاتماً يخلو من قوى

السحرة، لكن فص الخاتم الأزرقَ وطغراءه الأعجمية تحفظ سر العجز المختبئ وراء الفرادة والغرابة، فنمنح الخاتم الوهم، ونمنح الخاتم المعجزة، وندعك الخاتم مرة فتغنين، وندعكه مرة أخرى فأطرُب.

وبقوة السر تعالي، عبر نافذة مضاءة، أو عتمة تفتح الاحتمالات فيها ما تشائين من الأبواب، سأكون أمام النافذة وسأكون على عتبة الباب في العتمة، أرتدي الخاتم الذي ترتدين، أقرأ القصيدة التي تقرأين، وأطرُبُ لسر الأغنية، أغنيتك التي تغنينها الآن..

آية النور

في زاوية يتخطاها الضوء، تبطئ عندها الريح ولا تتداخل في فضائها العطور. هي حيرة المهندس، ومعجزة البنّاء. شغلها الساكنون بسرير نوم ملون، فلم يهنئ الطفل، ثم زينوا عتمتها بشتلة لبلاب فشاخت، وأشعلوا في خلائها شمعة فلم تنطفئ، فغادروا، ووضعت السيدة الحبلى، من الساكنين الجدد، بعد اسبوع مخاض، حملها في الزاوية، فأضاءت الزاوية، وصار يجتمع الضوء فيها ولا يراه سوى الوليد، ودارت الريح حول قوسها وئيداً، وأسرفت العطور في نفسها عند أنفه، وكان الوليد فتاة، وكان اسمها نور، وصارت الزاوية منزلاً للفتاة، تُوزعُ الضوء منها على باقي الزوايا، وتمايز بها بين العطور، وتعبدها الريحُ في كل مكان حين تشغل منزلها، آن تمر على الأشجار فتعزف الريح قداس الفتاة، وآن تسكن فيحزن العشب في الأرض وتهجر السماءَ الغيومُ المطيرةُ.

وكبرت الفتاة، وصار لها ألف زاوية في ألف بيت، وسيجارة بين شفتيها تُبخِّرُ سعة الزوايا بها، وأصابع تحرث دلتا الغواية شبقاً، تراقص الأشباح في الظلام، وتغسل بماء الحياء كوابيس الوسائد ودبق الأغاني. وصار في رأس الفتاة زاوية تحملها في الطريق، شغلتها برجال لا فحولة لهم، تضاجعهم في السر حين يتبختر المدعون على طاولات المقاهي بغزوات قضبانهم السمر في فروج العذارى، وأغان قرويين زنوج، لا يحملون هموم التزين، حيث تستر الأسمال عورات الرجال، وتطلق النساء نهودهن عند السواقي، حين يملأن الجرار بالماء الفرات، وحين يغسلن في الجرف قلائد الفضة والحجر.

وأحبت الفتاة، وكسر الحب قلبها مرتين، فخفَّضت صوت الأغاني، أطفأت عود البخور، وبحثت عن الرب في كل زاوية، صلت له على سجادة القطن، جمَّعته من خيوط الفجر وأعشاش البلابل وخلايا النحل، قرأت له الشعر عارية،

وكتبت له البراءة من شهوة الشيطان، وبعد انتهاء الطقوس وقفت تحت السماء وقالت: أنت أبسط من الصلاة

وأنحف من الفجر

وأنعم من أجنحة النحل وريش الطيور

يا حارس روحي

لقد تفصدتُ أمامك قطراً سابحاً في الأثير

أنت رب الأسقف الهشة

والزهور الفانية

والملائكة البريئة

انفخ طهارة الطين الأول بين نهديَّ

هذا الألم يدنسني

وأصابع صنيعتك البيض هَجرَتْ سرها

لا ندى يغلف فضة المرآة،

مسحتها بالوشاح، وكان الوضوح جارحاً، يسيّرُ الماء على وجنتيَّ

لا نار في محجريَّ،

وأنا شعلتك التي أضاءت قبل ثلاثة وعشرين ربيعاً زاوية البيت

دع الطير يأكل من يدي ثانية

والماء ينساب بين فخذي ليلاً على أنغام سانتانا

دع قهوة الصبح أقل مرارة

والرغيف الصغير

زاداً لجرح قلبي

ودعني أنام هذه الليلة

لأزرع في ظل نخلة البيت شتلة ياسمين

فبياضها الطفل يشبه يا رب وجهك

ويشبه سماري حين أكون سعيدة

وحين أحب

تباركت أسماؤك السرية، وتبارك وجهك الحارس

الجميلة

أغمض عينيك عن الجميلة وأمضي

تجاهل عينيها الفرعونيتين، وامح الصورة بعصا موسى واركب الطوفان وأغرق

لا تكن ضوءاً أمام وجهها ستحرقك

وغطاء رأسها المرخي في طريق الخصلة البيضاء، لا تتصوره مخلوعاً،

سيحاصرك الجمال ويدفعك طفلاً إلى دكان الحلوى

وتسوس الحلاوة قلبك.

أغمض عينيك عن الجميلة ولوح لها سراً

من حيث يطويك الأفق وتحجبك انشغالاتها

كن مستتراً وراء ابريق قهوة، أو شيخ يطرز الزجاج بالنقش الفارسي

اختبئ وراء أغنية لفرقة شارع،

وراء رقصة منزلية تؤديها أم تحب الطبخ ونباتات الظل وأسر القلوب،

وراء وعاء فخار عتيق، أو ستارة نحيفة مشغولة بالخرز الملونة،

وأن كُشفت، فالعب دور المراهق واستهدف خمس نساء بآن عسى تنجو من الشفقة.

افتح عينيك على الجميلة وايأسْ

فاليأس حارس النوم، ومُطمئِنُ القلوب

افتحهما مستسلمتين وشاهد الجميلة تحيا

تلونُ الملل، وتحارب الحاجة، وتكسر المألوف

تسابق الشمس إلى الغصن

وتفوح كالورد براءة بيضاء

اصغ لها، لخطوتها المتعجلة وقامتها القصيرة، ومرحها الذكوري

اصغ لأنوثتها المتوارية،

فليس غيرك من يسمع رنين الفضة الساكنة، ولحن الشمع المعطر

ولا غيرك من يهتدي إلى البقعة المعتمة، والدمعة المغلفة

اتلُ اسمها وحيداً واصغ إلى معناه:

ا ل ج م ي ل ة

وتذكر.. هذه الجميلة ليست لك.

لوليتا

هذه الابتسامة لك

لريحانك الطافي على بركة الضفادع

لنغمتك الخافتة وسط النقيق

لحيائك الوردي؛

دافئاً ككنزة الصوف

وموقد الفحم

وشمس أبريل

حين رأيت وجهك، كنت واقفة في الصورة، وتهبط من كتفك الصغير كالكمثرى، حقيبة بنية لها جيب في الواجهة، جيب حر بلا أزرار أو اقفال أو أزِمَّة، ورأيت رأسي يخرج، كصغير الكانغر من الجيب، وكنت أم صغيرة تحمل في فمها الريح الطاردة للسحاب، وكنت طفلة كبيرة تشتهي الحب كألواح الحلوى وكأس الحليب.

وكنت أقف على الجانب الآخر من الصورة، بعيداً عن الجيب الذي يخرج رأسي السعيد منه، اجمِّع الضوء من وجهِك، وأرش براءتك على عتمة غرفتي، أتحايل على حيائك بشرِّ الرجال الشهواني، وأشرب من هشاشة الورد في روحك ماءً بارداً.

والآن أمنحك ابتسامتي

من براعم التجاعيد النابتة على وجهي

وأرتب التعب المتراكم أسفل عينيَّ بشكل قطار بلاستيكي يأخذك إلى ديزني

أخيط لك من بقايا سعاداتي القديمة قميصاً ملونة بياقة بيضاء،

وثوباً أبيض بياقة ملونة

وأخيط لك رقصة للثوب، وأشتري كوز مثلجات للقميص

أبتني لك الكلمات فلست أملك غيرها

أيتها العشب المتحرك، والقطة المتكلمة.

صورة الفتاة المباركة

اجلسي قبالتي في الليل، لأتعلم حكمة الحذف والخلق، وأرى الباطن بالظاهر، ما أخفاه خيطٌ عانق خيطاً وصار حجاباً للنهد الطفل في مهده. ثمَّ امتداد للساق النحيفة البيضاء أعيى الثوب بطوله، فتفتق، وصارت حاشيته أسمالاً

بالية، وثمَّ صدق في بياض العين يشبه الولادة، ما أن يُرى حتى يذوق الرائي لبن أمه في فمه.

أحِبّي هذا الرجل الوهن أمامك

واغسلي عن وجهه الدخان والدم والخيبة

رممي ذاكرته المنهوبة بأشجار أبي نواس

واسقي عطش روحه بماء دجلة ألا تتشقق،

ويبتني السوس في ثغورها المساكن

أنتِ الجسد الذي طهَّرَ الماء حين مسه، ولوَّن الضوء حين عانقه، وغزل الليل فراشاً للصباح النائم، فلما استيقظ تزين بمرآة وجهك، أطلق الحمام إلى الحدائق، وأخرج العطر من الزهور.

وأنت الروح التي تحمل اسمها، اسمُها المكتوب في اللوح القديم، السرُ المنقول على لسان الملائكة، يعرفُها الشعراء نافذة القصائد، والأنبياء يعرفونها مفتاحَ المعاجز، ولها وجودها المحسوس كجسدك الملموس..

وها أنا الآن أجالسها

أتصور عريَ الجسد فتغار منه، واتصور عريها فتستحي نفسي، وما كانت لتستحي إلا من عجب عجاب.

أتصورك فلا أشتهي من العري شهوة المفترس لطرائده، غير شهوة المتأمل بالخلق، والمستغرق بصلاته. يمرُّ صوتك فأشتهي الصوتَ، ثم كلماتُك فأعِفُّ عنك أباً ينتصب لابنته عموداً لخيمتها، ويموت ستراً لها، وقميصاً على كتفيها الجاذبتين.

وأحببتك وما ظننتني أقدر على ذلك

فقلبي قربة الماء التي نفدت في صحراء التائه، وصار وزنها ثقلاً على ما تبقى من طاقة له على السير، فضيعها، ونامت في جوفها السحالي، ثم وجدَك واحة، شَربَ، لكن بقية المسعى جففت عروقه، وأعيت أمله في النجاة، وها هو الآن يقتفي خطاه بحثاً عن القربة في تيه عظيم.

كوني النجمة في سماء قلبي، نجمة الدليل الذي حفظَ كباطنِ يدِه الصحراءَ، وكوني شربة الماء التي تبقى، تمتصها الأحشاء فلا تنقص، كغصن جمالك الذي كلما قطفت منه أثمر.

وكوني الوصول بعد تيهي، وبعد ذلك لا تكوني غير نفسِك

غير صورتك التي أريتني؛ لمعة الذهب، وتَكبُّر الماس على الفضة

صورتك كاسية، مثيرة شبق القماش

صورتك عارية، مثيرة عجز الأمكنة

صورتك الملهمة لأصابعي

صورتك المباركة

صورة الفتاة الخائفة

كما في البيت

كما في الحديقة

أنت خائفة، وتملأ أنفَك رائحةُ الوحش، ويحتل عينيك خيطُ سواد في النهار. كتفاك تتقاربان، ويهرب قلبُك أمامك حين تجلسين، لصورته غشاوة الحركة في صورتك الساكنة.

كما في البيت

كما في الحديقة

أنت خائفة، يلاحقك الهواء بكفين هائلتين، وتمر أصابعك النحيلة على ندب كثيرة في الشوارع، فتقشعر شفقة وخوفاً، أيتها المتوحدة في غابة الأذرع المستغيثة والمفترسة.

خائفة حين تستيقظين

وقبل أن تنامي

ثمة أعشاب حزن تنمو على الأحاديث والمصادفة، أنانية تقبض على دفة المراكب المبحرة إلى نجاتها، مصاعب تشبه الشوارع المفروشة بالحجارة، تشبه أرجل الطفلة الحافية في الشوارع، الماشية على الحجارة، تشبه الدم والوجع في الوصول.

خائفة في وحدتك

وحين تحبين

لأن العالم أكبر مما ينبغي، أعقد من لب تفاحة حلوة، وقشرةِ موزة سوداء، أشق من ضرب مطرقة تقحم المسمار عنوة في الحائط، أقسى من انفلات الخيط، وسقوط الصورة المعلقة بالمسمار.

ولأن لا شيء، في هذا العالم الكبير المعقد الشاق والقاسي، صالح للأطفال.

يا مريم

صورتُكِ تحلبُ الصمت الباسم على وجهي القديم، وتملأ مني كؤوس العجز وتدلقها على الأرض، فأتضاءل، ويدور على لساني كل ما حُرِّم قوله ولا يأخذ نحو الهواء المتثاقل دوره أو صداه، حمولته المعطرة بالقهوة المرَّة، والضحك الشبِق، والحروف المشوهة كوجه الكعكة في بيت الصغار.

على لساني قصيدتُك

قصيدة الحب المؤجلة كخدمة عسكرية لشاعر جبان.

أفتح النافذة لأسرق بعض الهواء..

العصافير تغني، والفجر يتأخر خجلاً من قميصك الأسود

ونعاسك النادر، كمحبتك وكراهيتك

يتسلل من فمك المتثائب إلى أصابعي

وتقول أصابعي: ليس نعاساً

لكنه خوفُكَ، رجولتكَ العاجزة عن نصب ذكورتها، رجولتك الممحوة..

وتتحدثين

وتبتسمين

وتتلعثم القصيدة

وتقولين: أتراهق في السابعة والعشرين؟

وأعيدُ خصلاتِ شعري إلى الوراء وأرخي كتفي

وتقولين ما يحجبه عن أذني ارتخاء قميصك، فأهرب من سهوي بغزل بائت

وما زلت تقبليه بشفقة، وترديه بضحكة.

على لساني ما يصلح الآن لفظه

على لساني النداء الذي بدأ قديماً ولم أكن حيث كان

النداء الذي لم ينقطع

النداء الذي يفرش لساني بالشوك والحصى

وأمسك من النداء طرفاً:

أيتها الفتاة

يا صورتي المغسولة بدم الملائكة والمؤطرة بجلد المسيح

رأيتك واقفة يجتازك الزمن

تتعثر بك العثرات

ويبتل بك المطر

رأيتك عشباً لا يموت في الظلام

وقلادة على عنق الشجر

ولاحقتُ الزمنَ حين مضى، ووجدتُك سابقة لي وللزمن، قصدتُك ولم أصل،

تعثرتُ، وأنْهَكَ المطرُ الأرضَ، وابتلعني الوحل، وقضمت مني كل ورقة عشب لقمة، وصورُك على الأشجار تتأرجح أمامي، وكنت أقول مريمَ، وتقول الشجرة مشنقة.

أيتها الفتاة التي لا تكرهني

أيتها الفتاة التي تحبني، فأكرهني

فأرى وجهي في وجهها فأحبني

أيتها الفتاة المرآة

في هذا الفجر ذو الضوء المتردد

الضوء المحجوب عن ذراعِك الآن، المسفوح على ذراعي

لستِ إلهاً لأعبدكِ

ولا ملاكاً لأسأله السلام والطمأنينة

ولا الشيطان ليعلمني الغواية

ولا الأنثى لأغويها

ولا الصديقة لأحتويها

ولا الحبيبة لأغازلها

ولا الأم لأطيعها

ولا الوطن لأفديه

ولا العدو لأحاربه

أيتها الكينونة الفريدة، والذات العليا

اتركي لي في رأسك شعرة طويلة واحدة

شعرة تتدلى من حيثِكِ إلي

فلا نجاة لي في هذا الطوفان بغير حبل سماوي ينتشلني

وافتحي لي النافذة حين تنامين

فأنا أصرخ كثيراً حين تنامين

أقول كل محظور قوله

كل ما لم أقل حين كنتِ تسمعين

وأعيد ما قلت حين لم تسمعي

ستفشي النافذةُ لحلمك ما لم أقو على قوله

نعم، تمتلكين قوى خارقة

لك شيء يحرر روائح الأشياء من محدوديتها، يمتزج بالجبنة الذائبة في الخبز مثلاً: جميلة رائحة الجُبن، جميلة رائحة الخُبز

لكنك حين تظهرين، اسما أو صوتاً أو كلمة، يختلف كل شيء، يفوح الاثنان بروائح المشاعر، فالجبن يأخذني إلى مقهى أتذكر القهوة وأشمها، الخشب العطري للكرسي والمائدة الزجاجية السوداء، والوسادة المدورة حيث يتكئ نصفك الأيسر وتعبث يدك بطرف الحقيبة أو علبة سجائري.

وأشم مع الخبز روائح دسمة وأسمع صراخ أطفال على مائدة عائلة كبيرة، ويسقط من الهواء على لساني شيء من سلطة الحمص، كنت متوترة بعض الشيء، خائفة ألا تقولين ما أنت قادمة لقوله، وأشم رائحة المغادرة، فتغيير الأماكن يفوح بالسعي والمحاولة والنرجسية، ذلك حين نظن أننا أعلى كعباً من هذا الضجيج، وما يليق أكثر هو ما نستحق ونقصد.

لك شيء يحرر كل شيء من محدوديته، الأسماء من حامليها، والذكريات من أطرها الزمانية والمكانية، شيء له صلة قرابة بالتأويل والخلق وجينات الآلهة، حيث كل شيء أكبر مما يبدو وأقرب مما يبدو، وطير المعنى لا يكف عن الهجرة.

والآن أنظري، سأقول مريم، سأجد في يدي المجلد الثاني من أعمال سعدي الكاملة، وسيمشي المسيح أمامي، ويُخرج حصى الروم من قدميَّ دمٌ. ثم أقول مريم، ويعلو منسوب النهر ويسخن الصيف عشر درجات حرارة إضافية، وأستعيد صداعا قديما لا يشبه على الإطلاق صداعي الآن، ثم أقول مريم فيختفي الصداع، وتعلُق في أذني ضحكة أحبها متبوعة بتمتمة ناعسة، ثم أغرق بالنوم جلوساً.

ولك شيء آخر، شيء وحيد أكرهه بخصوصك، أن لا كفاية أو رضا، ستبقى الصورة ناقصة، القصيدة بلا ختام لائق، واللقاء بلا ما نشتهي، والحياة بلا ما نطمح، وسنطارد النقص ونلهث، وبينما نفعل ذلك، ثمة حب دافئٌ، يبتسم ويبقى.

مكاشفة

(1)

اخرجي إليّ أيتها النهار المنقضي

يا صاحبة النجوم المضيئة

النجوم الميتة

من جثمان ضوئك الحقيقي

وبراءتكِ القديمة

من قلق الأمكنة

من أشباح الشارع المحترقة

من تلاوتِكِ لاسمي

واعقدي حبل الأنشوطة جيداً قبل أن

تخرجين إلي وتصحبيني

إلى الجمع الغفير

اخرجي إلي من الجدار البارد

أيتها الأثر العالق في المحو

يا بقعة بيضاء على روحي المسودة

يا بقعة جففتها السنين فاسودت

من الصمت الجاثم في الغرفة، اخرجي

من هذه المقطوعة الفارسية

من الحزن الكامن في صنوجها

من رائحة الموت في لحنها

من الموت الذي زارني

ومن وحدتي الآن

لتقرأي همساً قصيدة رثائي

قصيدتُك التي قرأتِها من قبل على جثماني

لتقرأيها الآن

وفي ميتتي المقبلة

(2)

على وشاح طفولتك بارود إطلاقتي

على كلماتِك حفرُ خطاي الراحلة

في أذنك تعويذتي المتفشية

سميَّ المعسول

وشعوذتي الملونة

في قلبك شوك وردتي

وعلى أديم أصابعِك أثَرُ عطرها الزائل

عطرُها الدالُ عليَّ

أنا البلوى التي أصابت نفسها

حين التقينا

فتفسختُ ببطء

وأعدتُ تجميع مسخي لأمضي

وأصابتك

فاطفأت كل الشموع

سوى الزرقاء

كان على لسانك حديقة من الكلمات

أزالتها

وكانت على خاصرتك رقصة

صيرتها جرحاً في الخاصرة

ولستِ طريدةً ليسقطك الجرحُ

ولا الصياد لتُشفَي

أنت القتيلة التي عاشت

فاخرجي إليَّ

اخرجيِ لقاتلِك جاثياً على ركبتيه

مصلوباً كمسيح

منتظراً أي شيء

غير أن تقتلي مريمه

باب الوصول

وأتيتِ كلمة ترمم من حولي المعاني، وكنتُ ممحواً؛ أوجزتْني الحياةُ باسم وقدر، فناديتِني يا مبتدئَ الأشياء، ووضعتِ نقطتي شروع أمامي، وقلتِ: اكتملْ

*

من خلف يأسي، فتحتِ الستارةَ، وقلتِ يا علي، أنا هويتك التائهة.

أتيتِ سحابة تبلل من حولي المحيط ليعبق، فاحتضنتِ العشب واحتضنت الرصيف، وكان البرد موحشاً كوداعٍ يهزني كوتر، فأصبحتِ فكرة دافئة.

وأتيت كلمة ترمم من حولي المعاني، وكنتُ ممحواً؛ أوجزتني الحياة باسم وقدر، فناديتِني يا مبتدأ الأشياء، ووضعتِ نقطتي شروع أمامي، وقلتِ: اكتملْ.

وأتيت طفلة تغار عليَّ وتحبني وتلعبُ، وكان هوائي دخاناً وضوئي مسموماً. حملت لساني لمنع مجيئك فردته وحدتي، رفعت يديَّ بدل اللسان، فصيرهما الارتجاف حضناً، فبكيتُ، وأتيتِ لحضني وقلتِ يا حبيبي سأنجيك فلا تخف.

*

ضوؤك يسبق الصباح إلى وجهي، وتحجب صورتُك عينيّ لما أخاف، والغضب المزمن، المتسلق عليَّ عشبةً من نار صلبة سوداء، ثقيلة وحارقة وجارحة، صار يشرب ماء اسمك وينطفأ.

عادت السماء، بعد أن هجرتها صحواً ومطراً، وطردتها من باب التعويل ولائحة المناجاة، ملاذاً لإنظاري آن تضيق بي الأرض، فالسماء نفس السماء فوق رأسي ورأسك.

والكهل النائم في صدري، حين دخلتِ إلى الأيام، عالج سعاله بالمشي في بغداد، صبغ شيبه النابت على لساني بقصائد جديدة، وقال لي افتح يا فتى باب قلبك، وادعُ الفتاة إلى الحديقة، الشجرة عامرة بالثمار.

*

في حيرتِك تغرقُ أنفاسُك، تنجرحُ في بكائِك، وتلتئمُ بضحكتِك

ولها جسدٌ ينام بجانبي حين تنامين

وبإصبع هوائي تطرق على جبيني، تَسِرُني بكلماتك الضائعة: عن وجهتِك في السير، ورقادِك في الشك، وركضِك في المحبة

وتسألني أن أعيدها إليك قبل فوات الأوان

فأتركها على فراشي، وأمنحك أنفاسي

أعود ممسوساً

تغرقُ أنفاسُك في حيرتي، وتنجرح في بكائي

وتنام حين أنام

بدفئها تمسُ بردي، وتقص عليّ أحلامي

عن سقطات الأمس، ومعارك اليوم، وجروح الغد

وتسألني أن أتلبسها لأحطَ بسلام وأنتصرَ وأشفى

أتلبسها فأسلم وأنتصر وأشفى

ونجدك حين نقصدك ممسوسة بأنفاسي غريبة بأنفاسي

حائرة مجروحة

فأغرقُ بحيرتِك، وأنجرح ببكائك، وألتئم بضحكتك

وأترك أنفاسَك على فراشِك وأسترد أنفاسي

وأعود..

حبيبك في النهار.. وحبيب أنفاسك ليلاً

صورة واحدة

في صورة واحدة

كان للأمان بابان في عينيك

وحديقة بريئة

تشبه ملاهي الأطفال

وصوت خاشع يقرأ دعاءً طويلاً

في صورة واحدة

في صورة واحدة

ترك الغد لي دعوة متوارية بابتسامتك

كأن اسمي كان حلمك في الليلة السابقة للصورة

والابتسامة رسالة قادمة من المستقبل

وضفر لي ضوؤك قلادة لليل

ورست قوارب نجاتي كلها

في صورة واحدة

ثم بكلمة ملكت الحياة

نمت طفلاً رضيعاً، وشممت الربيع من الزهر مخلفاً النافذة ورائي

عرفت أن للسكر في الشاي طعم حلو

وأن باستطاعة العالم أن يكون جميلاً

وبكلمة أخرى

انسحب السواد إلى ثقوب الأرض

وصار ظلي أبيضَ

ووقع اسمك على لساني تميمة

واتقنت لفظ حرف العين كما يتقنه المطربون.

ماذا سيحدث لو رأيتك

وسقطت عيناي في عينيك

وحمل الهواء زفيرك نحوي

ومس زفيرك شفتيَّ؟

ماذا سيحدث لو رأيتك

وأفلت وجهك ابتسامة

ثم أفلت فمك ضحكة

وسمعت ورأيت؟

ماذا سيحدث لو رأيتك

وفي خضم حديث

أطيله بالثرثرة وتلوّنيه بالارتباك

مست يديْ إحدى يديك؟

ستحدث أشياء كثيرة محتملة

أصغرها

إنني سأحيا

في انتظار الصباح

وبينما يتسلل القمر إلى نعاسك، وتنسج النجوم لك حلماً مطرزاً بالضحكات، تزورك أنفاسي، كما يزور الأطفال هدايا رأس السنة قبل منتصف الليل، وتشتد حسرتها قبل عودتها إلى رئتيّ.

وانتظر الصباح، حيث ترافقني غيمة من سمائك في الطريق، وتفتح لي نافذة على كل جدار، فأرى الغد ممتلئ بك، وساعاته ملونة بالثمار والضحك والحياء.

لم تعد الحياة نفس الحياة

يا أم الغيم وابنة الماء ورفيقة الشمس

اصنعي لنا أرجوحة من حبال الزمن

نعود بها قليلا ونقفز بها إلى الأحلام

ومن الانتظار قطارين سريعين يحملاننا إلى محطة واحدة

ولتكن المحطة أرضاً وابتسامتين وبضعة دموع

وعلقي إطاراً فارغاً وصغيراً

نضع صورنا خارجه، نكاية بالمساحة والحدود.

ثمة كلاب وحيدة في الشارع لم أعد أشاركها وحشتها، ودخان كثيف في غرفتي أخفف به حدة السعادة ونعاس انتظر به الصباح، وأنا أعلم أن كل صباح جديد هو خطوة أخرى باتجاهك، لذا منذ عرفتُك، وأنا انتظر الصباح.

محطة البداية

*

في الرحلة، كان القطار يتجاوز المحطات
عجلات الحديد، صارعت بصخب منذ البداية، السكة الحديد
والاهتزاز لم يترك مستقراً للصور.
عبرتُ المراعي، قطعان الجاموس، ومرّت فوق سقف القطار
أسراب لا نهائية من الطيور المهاجرة شرقاً وغرباً
لم أرها، ليرسم شكل الجناح في أحلامي معنى للتحرر أو السعادة
لم يكن الطريق سوى غشاوة متحركة وعثرة تتكرر
وها أنت، تظهرين فجأة، محطة يستريح بها القطار
ونافذة لهروب المسافر.

*

خذيني إلى حيث تختلط الشمس بالبرد
وتنفرش السماء كما الأرض بالحدائق
فأصنع لك إكليل غيم
ونأكل كوز مثلجات يستفز الشتاء.
هناك سنخطو على شارع لم ير البهجة المتشبهة بعينيك
وستُمحى آثار الظلام على رصيفيه حين تضحكين
سترتبكين، حين أغازلك بين سابلته، وسينصتون

لأنفاسك تزرع في الهواء زهراَ أبيض وأعشاب وردية

*

أنا خرابة يفضحها الليل بالظلام بين البيوت المضاءة

تعزف الريح بنوافذي لحن أغنية الغرباء

وتنشط في كل زواياي العناكب

أيتها الشمعة المعطرة

أنيري شرفتي بصحن فاكهة يقطفه مشطك الخشبي

واغلقي ثقوب الناي أمام الرياح

سأكتفي ببراءة أصابعك تلمس كتفيَّ لنفض الغبار

وأكتفي بطيش شفتيك الطفلتين

تنفتحان، ولا حرف يخرج

بهذه البراءة، بـ لا شيئك، وبوجهك يفشي لي الكلمات

ستكون الخرابة بيتاً

وأكون حبيبك

خلاص الشاعر

في الليالي المضاءة والمعتمة
بنوافذها المفتوحة على النسائم أو المغلقة على الوحوش والأعاصير
سأكون النار الطائشة والزجاج المكسور والمصباح المعطل
سأكون الأغنية النشاز في الصمت، وسأجرح بصوتي قلبي الفقير
وسأبكي
لقد خرجت ألواني عن حدود القماش، ونمت لي جذور خارج سور الحديقة
وحين قصدت الفراش في كل أمس مضى، التفّت على أطرافي الكلمات
وما كنت بائع الجواهر ولا صاحب الزينة
بل المقيد بالوهم؛ أتغول في الظل وأحترق في الضوء
والآن في حضانتك أوصدت أبوابي ورسمت أجنحة الملائكة على النوافذ
لتؤطري النار وتنفضي غبار الأحلام الملون عن اكذوبة الشعراء
وتلمعين دبوساً على صدري، وتكونين وخز الشوكة في غصن الوردة
قطرة الدم على الإبهام، وجرح العطر في الأنف، وملمس المخمل
وسأبكي
حين أرى وجهي بقطرة العرق المتدحرجة على صدرك
واسمع اسمي نقياً، خالياً من سنواتي العشر الأخيرة
ينمو على عينه زغب المراهقة، وتملأ لامه الأخطاء، وتبحر ياؤه إلى جزيرة الكنز
يُلفظ من لسانك كأنه أمس جدِيد، أو هوية أخرى

وحين أقبلك فتزدادين احمراراَ كأنني الماء ينضّج الثمار على براعمك الفتية

فالتهمك، واعتصر السعادة منك، وأرويك

وأشهق ما تزفرين فيزول اختناقي

وأبكي

سأحتاج كل ما وجد منك ذات يوم

وما سيوجد، وسأخاف غياب كل ما فيك

يدك الصغيرة على شعري، وخطاك حولي، وتلعثمك البريء

فأنا النار الطائشة والزجاج المكسور والمصباح المعطل

وأنت ما يجعل هذا الخليط العبثي شيئاً نافعاً ليحيا

فلا تكوني أي شيء غيرك

تخاطر

كلّ صباحٍ أُفكرُ بكِ كأنكِ ابنةُ اليوم. كان العالمُ قبلَكِ شيئاً، ولم أعدْ أراه، حين مررتُ فيه طريقاً، قادني بوعورةٍ إلى اليومِ الذي أفتحُ فيه عينيَّ، عرفت أن قبل اليومِ لم يكن ثمةَ شيء، والآن أنتِ هنا في مكانٍ ما، فلا يؤلمني رأسي، إذ أنَّ معنى الزمن مبسطٌ وجميل، مثل وجهِك المُطمئنِ وبياضِ البريء.

كلّ صباحٍ أراكِ بكلِّ شيء، فيصبحُ كلُّ شيء أنتِ. على قميصي الأزرق طبعُ أوراقٍ نديةٍ، يمرُّ إصبَعُكِ الصغير على القماشِ ويبتلُّ، يمر الضوءُ على إصبعِكِ، فأشمُّكِ حديقةً في نهاري، وأراكِ خيطاً لامعاً في الليل.

كلّ صباحٍ ترافقينني بجولةٍ صغيرة في حيِّنا الكئيب، أركبُ دراجتي وتجلسين على الحاملِ خلفي، يُلوحُ بنا الهواء يميناً ويساراً، ونتعثرُ في المطباتِ ونضحكُ، نقفُ أمامَ الخراب؛ أنا أحدِقُ فيه وأنتِ مختبئةٌ في ظلي، أهمسُ بأغنيةٍ وأنتِ تهمهمين بلحنها، فتبقى معلقةً بالهواء إلى الأبد.

كلّ صباحٍ نُدشن حباً جديداً، نلمُّ بقايا الأحلامِ من شراشفِنا، ننظرُ من حولِنا، نبحثُ عنِ الطيف الذي نَعرفُ أنَّه لم يكنْ في الأمسِ موجوداً لكنه الآن، في مكان ما هنا، نريقُ دمعةً ونبتسمُ، إذ أنَّ لهذا الزمن معنى مبسطٌ وجميلٌ، وأنَّ الغد هو نحن.

دعاءُ انتظارِ الحبيب

احفظي لي صوتَكِ حتى المساء، خمريه بالحنانِ وحنّي خصلاتِ نبراتِه بالنعاسِ والكسل، رتبي أنفاسَكِ على سلمِ موسيقيٍ سيؤلمني رأسي في الطريق، هذهُ الأنفاس: زادي حين أعودُ، وثيابُ البيت، ووسادتي.

احفظي لي شعرَكِ المتعرجِ كمتاهةٍ من نور، افرشيه بساطاً لأصابعي، وجهزيه وشاحاً لعنقي المتصلب، سيكونُ دافئاً، وأكون قد نلتُ من البردِ ما يغيرُ لوني، هذا العسلُ المغزول، الهابطُ على ظهرِكِ ستارةً، ذو الدهشةِ المعقدةِ كقصيدةِ نثرٍ؛ ملكي.

احفظي لي جسدَكِ، برائحتِه وجوعِه وانتظارِه، وشوشيه: أنَّ الطريقَ طويلٌ لكنَّه سيجيءُ. فأنا المؤنثُ لأصابعِه، والساقطُ تعبا في أراضيه، أنا ابن تربتِه وبذرتِه وسقايتِه، وأنا فحوى سمارِه وثيابُ عريه ونشيدُه الأوحد.

في الشارعِ ضجيجٌ يطرزُه الصمتُ بغرابة، وصورةٌ لحياةٍ بلا رواية. ثمةَ جيبٌ في صدري أحملُ منكِ شيئا فيه، أتركُه مفتوحاً يا عصفوري، لأزق في فمِّكِ القبلاتِ خلسةً، وأعرضُ لكِ وجهي كلما هددتْهُ الذاكرة.

في العالمِ ممراتٌ ضيقةٌ ومعتمةٌ، نمرُّ فيها كالنملِ وحدنا، نرسمُ أزقتَها ونفترشُها، نأكلُ على أرضِها وننام، ممراتُ الهائمين بلا وجهةٍ، والمنفلتين من أرجوحةِ الأملِ المخادعة. ثمة في ضيقِها ما يكفي لأغنيةٍ جديدةٍ.

سفر الوجود الضائع

قبل الخليقة بأمس

كان النهار ساطعاً، وثمة نافذة غارقة بالضوء تُنبئُني بالاستحواذ

«كل مرئي ملكُ عينيكَ، وكل مرئي تلوحه خطاكَ»

لكن الحقيقةَ لا تؤمنُ بالنوافذ، وتكره الشعراء والأنبياء

قالتِ الحقيقةُ: يداك قصيرتان والعالم بعيد جداً.

***

في البدء كان الحبُ ولم يكن اللقاء

رأيتُ صورتكِ وعرفت كيف يجتمع اللّه باسمائه الكثيرة في إنسان، قرأتُ سورة الفاتحة على جبينكِ، وجفلتُ من «التوبة» تزم بشفتين ناريتين على كلماتها عبر عينيكِ الخطرتين. قلتُ ليكن الحب وكان؛ أغنية الصورة الواحدة، ثم استخلصتك من كل تفصيلة وزاوية بانتباه منفصل.

ثم كان الحب وتضاءلت الصورة

كان صوتك يملأ الحياة بالخيال، ينسلُّ إلى أحلامي أشجاراً وعمارة وبشراً وأشباحاً، ينسل إلى يقظتي فيخرج من كل شيء، وكنتُ أكتبُكِ ليعلو الحب، وأسبّح باسمكِ، وأناجي من خلالِك الوجود، وأتضرع بك إلى الخالق.. فكانتْ عبادتي ووصولي إليكِ من بوابة السمع، وكانت البوابة واسعة.

ثم كان الحب ولم يكن ثمَّ شيء

آمنت بك إماماً غائباً، وحجة عليَّ في الغد القريب أو البعيد، كنتِ تُطلين بكلمة فأبتهج، عبر إشارة فأبتهج، ويخطف صوتك بين الحين والحين كالمقدس في الرؤيا فأمسك بآثاره، وأقدس ما هزت تردداته في الهواء من غبار.

ثم أعدتُ الكَرَّةَ

وفاضت محبتُك على ضفتي المجاز، وصرتُ كالعبد الذي تحرر بعد أربعينه واغتنى، فغدا بخيلاً ومتوجساً، أحارب الإسراف بالصمت، فأقطف كل ما تمنحه الدقائق، آخذ منكِ التثاؤب والسعال والضحك كما آخذ الكلمات.. وهكذا كنت أولد في كل كرّة مجدداً، فلا أكبر، وأنتِ تقفزين أمامي من عصر إلى عصرٍ.

***

أكتب لكِ من عالم غير عالمِكِ، أيتها الخالدة بأعوامك الألف، بلغة منقرضة، بصوت يلثغ ويلحن، وينحب كما ينحب الأطفال.. أكتب لشَعركِ الأسود ملفوفاً على أعمدة من ضوء، ليديكِ الممتدتين على طول زمانكِ، بحضرة ثوبكِ الذي يغطي عالمكِ، ورهبة عينيكِ العسليتين، يمرح الغيم بمحجريهما.

أكتب عن محبة قديمة، بدأتْ بصورة، ثم صارت حفراً في التاريخ، مرَّ عليها الزمن فأنجبت الأساطير، وخرج من الأساطير آلهة كثر فصرتِ كبيرتهم وسيدتهم.

كان في سالف الزمن أمس ذو نهار ساطع

تنبأتْ خلاله نافذةٌ يغرقها الضوءُ، بالاستحواذ

اجتررتُكِ بحسب النبوءة من الصورة والصوت والغياب

وقالت لي الحقيقة في ذلك الأمس، إن يديَّ قصيرتان والعالم بعيد جداً. ولم تكن الحقيقة منصفة.

اليوم، يا سفر الوجود الضائع من العهود، ويا سورة الدهشة المحفوظة باللوح المتواري.. مرريني معكِ إلى عالمكِ لأنجو. تباركت أسماؤكِ. إنكِ سميعة النداء.

صانعة النوافذ

أعود إلى البيت بهم، بحيرة النوم أو الاستغراق في الفراغ، دوي هائل في الرأس أصحبه من الشارع. حرقة في القلب أسكتها بشربة ماء، وأهرش عنقي دون سبب، أهرشها كمن ينتظر، ثم تأتي رسالة تخلق نافذة في الهواء، وتدخل الهواء إلى الهواء فأتنفس وأنام.

مرة تلو مرة ترافقني النوافذ وأعني نوافذها، نوافذ الصبح المُعلِبةُ لليل، نوافذ الحدائق في قارورة الدخان، ونوافذ الحياة، تلك التي توقد شمعي كلما انطفأ.

صانعة النوافذ هذه عصية على المسافات، تدق مساميرها إن التقينا على الجهات الأربع، وحين تغض تسربها إلي في الأحلام، وحين تبتعد تغمرني النسائم بذكر اسمها، نافذتين في كل مرة، من نونها الأولى ونونها الأخيرة

إيه يا رئتي وعيني، لو تعلمين ما معنى أن يتنفس رجل كل أشكالك الوجودية ليعيش.

صلاة المسافة

لهذه الصورة أصلي كما صليت لقبلها، لألق الشوق والوجع في العينين الناعستين، ولقفزة الطفل وسع المحجرين بهجة، ولحنق الحدقة اللامعة، وسكرة الجفنين الدائخين. لهذه الصورة أصلي ولما بعد الصورة، طية اللحاف وعرق الرقبة الذي التصق بخصلة، وطرف الثوب العالق بين الفراش وخشب السرير.

وأصلي لأربع اصابع تبعج الوجنة اتكاءً، ولقلادة مراهقة تغالي في تدليها، تلك النجمة السوداء سجدتي، على العنق هناك.. نعم يا ليلي الأبيض. وأنا شعرة الجفن الساقطة يسار أرنبة الأنف في دعاء الأمس، وأنا الجرح الصغير على السبابة اليمنى في دعاء اليوم.

اقرأ اليأس في الصوت قصيدة قبل المغيب، الشعر صلاة من لا معبد له، وقصائد الصمت التي يغنيها الشهيق والزفير أسمعها وأبكي، قلت الشعر صلاة وقرأته حتى بأثر القدمين على عتبة الباحة الخلفية، نغمت رقصة حبل الغسيل على ايقاع القلب وغنيت في قلبي، صوت القلب لا ينشز ولا يعرف السوء في اهتزاز اطراف حروفه.

أيتها الصورة ومن خلفك الصوت، شبح جميل أحبه كل صباح، وحضن كلما اغمضت عينيَّ مزجتكما معا. أيتها الفتاة خلف الصوت الذي أمامه الصورة، أيتها البعيدة أنا عطش وروحي تفطرت في العراء، مدي يدك متوغلة في شعري مرة ليضيء رأسي، وافركي بإبهامك تراب الروح لتنبت فيه الحياة، أيتها الصورة ومن خلفك الصوت أحبك، أيتها البعيدة من هنا خطوة إثر خطوة حتى هناك.

عيد

ثمةَ ألوانٌ تمرحُ في الوجوه

بالوناتٌ ومياهٌ تتناثرُ على الحدائق

سمعتُ الأطفالَ يضحكون

وكان الشارعُ فارغاً

قلتُ: هذا صوتُ حبيبتي.

الشمسُ الدافئةُ تمرُّ على النوافذ

تمسُّ بأصبعِها أنفَ الصباحِ الأحمرَ

كنتِ تتقلبين على الشرشف

والضوءُ ذهباً يسيلُ على مؤخرتِكِ المكتنزة

قلتُ: هذه ابتسامةُ النهار.

الشاي الساخنُ يُسكبُ في الكأسِ

داكناً وحلواً يَطلقُ غيمتَه المغريةَ على الطاولة

وجهُك الناعسُ يُطلقُ تثاؤباً شهوانياً

ويدُكِ البيضاء تكسِرُ الخبزَ ببطءٍ

قلتُ: العيدُ يشبه حبيبتي

قصيدةُ حبٍ على طريقةِ نيرودا

(1)

من هنا

في هذهِ الغرفةِ حيث ينطلقُ الحب

بذراً تحملُه الرياحُ إلى مدينةٍ خيالية

وأجلسُ حيث تنبتُ البذورُ، بين حرائشَ حمراء

وزهرٍ بتلاته الماء المعطر

وسماءٍ من السكرِ المجبولِ والألوان.

تجيئين عندي ونقرأُ الشعرَ ونشاهدُ الأفلام

أُخبرُكِ: عن حقدي الكبير للشعراء

أعلنُ غيرتي الصريحة

من كلِّ غزلٍ كُتبَ بغيرِ يديَّ

وكلِّ حرفٍ وَصفَ العيونَ السودَ وأجسادَ السمراوات.

(2)

أكتبُ لكِ يا حبيبتي من غرفتي العابقةِ بالشوقِ ودخانِ السجائر

أكتبُ من سريري الذي ننسجُ أحلامَنا الزرقاء فيه

ونسكبُ القبلاتِ فيه رسماً وصوتاً

ونسندُ عليه رؤوسَ بعضِنا ونبكي وننام.

أكتبُ من حيث تبادلنا تفاصيلَ الحياة: على المنضدةِ الآن غبارٌ وكأسُ ماء

على السريرِ ثلاثةُ كتبٍ وفوقَ مسندِ الظهرِ سبعةٌ أخرى

لم يدخلْ الضوءُ إلى الغرفة

يدي اليسرى تُمسِكُ الهاتفَ لتُرسِلَ رمزَ قبلة

ويدي اليمنى أسفلَ عنقِكِ، لو كنتِ نائمةً هنا الآن..

(3)

لو لم أرَّكِ في ذلك اليوم لما كنتُ أنا

لما كتبتُ عشراتِ القصائدِ عن مفاتنِكِ

عن لحظاتِ صمتِنا الطويلة، وضحكِنا المهبولِ وعراكنا الحاذق

عن لحظةِ الإسهابِ في الجمال:

حين تَعرقَ العشبُ على الأرضِ، ونبتَ الأبنوسُ أعمدةً من حولنا

وطلعتْ نجومٌ قبل مغيبِ الشمس

حين مسَّ أصبعي أصبعَكِ، واحترقَ الهواءُ بتؤدة

وتلوَّتْ غنجاً من حولنا الأغصان.

كان وجهُكِ ملعباً للطيرِ والسنجاب، والبهجةُ طوقاً من الضوءِ على الإشاربِ الفيروزي.

عيناكِ دارتا في أفقٍ صغير، فرقتا ملامحي وجمعتني مرةً أُخرى أمامَ الغرب.

كانتْ الشمسُ ورائي وكنتُ آخرَ ظلٍ تمدُه الشمسُ قبل أنْ تغيبَ

وكان أصبَعكِ خيطاً يجرُّني إلى الملاذِ الآمنِ بعد مجيء الليل.

ودعتُكِ وكفُّ يدي يقبضُ على الهواء، يحفظُ آخرَ شهقةٍ أخرجتِها قبل أنْ تغادري الحديقة.

(4)

حين تتضاءلُ الأصواتُ والأفعالُ في المساء

يجفُ حلقي ويعلِقُ اسماً واحداً بين شفتيَّ

أُناديكِ كأنَّكِ عشاُء الجائع

كأنَّكِ الشرابُ الذي لا يمضي بدونه الليل

وكأنَّكِ الولاعةُ التي فقدتُها في الطريقِ إلى البيت.

تعالي نُحرِكُ الدمَّ في عروقِ الدقائق

تعالي نركضُ مع النُسغِ في الأشجار

ستنبتين وردةً بيضاءَ على الغصنِ الجديد

سأجري فيكِ ماءً وعطراً

نلوحُ للقمرِ إذا هبَّ نسيمٌ خفيف

ونغني بعد أنْ ينامَ الناسُ في بيوتِهم

وننام ملتحفين بالندى حتى الصباح.

كيف أكتبُ قصيدةَ حب

هاتي صورةَ يدِك البيضاء

تنهداً ناعساً قبل قيلولةِ النهار

وضحكةً حقيقيةً جداً على طرفةٍ مكررة

لأكتب قصيدتي..

تخاطبكِ اللغةُ عبر نهاياتِ أعصابي، تغازلُ نفساً عميقاً أو تهويدةً عفوية، لحظةَ سهوٍ تطوين بها العالمَ مع جفنيكِ الرقيقين. تتوسلكِ اللغةُ أنْ تَمدي لها الطرقَ

لتمضي، لتبحرَ عبر لمعةٍ خاطفةٍ في العينين أو تقطيبةِ غضبٍ مشتهاةٍ على الجبين، تناجيكِ أنْ تُصغي، فلا تمرُّ اللغة إلا عبر أذنيكِ حين أقرأها، ولا تتألقُ بغيرِ دمعةٍ تهبطُ مع سطرِها الأخير.

خلفي الثيابَ متسخة

القدرَ على النارِ، والممسحةَ في دلوها

خلفي البيت وتعالي..

ثمةَ قصيدةٌ لالتفاتتِكِ، وقصيدةٌ لتثاؤبِكِ، وأخرى لحيائِكِ.

ثمةَ قصيدةٌ تتسللُ إلى درجِ الملابس، تسرقُ السطورَ من الألبسةِ الداخلية وكعوب الأحذية والجوارب.

فتعالي لأكتبَ، ولتصبحَ القصيدةُ مناسبةً على مقاسكِ.

نَفَسُكِ

هذا نَفَسُكِ، يحفظُ ما بدأناه الليلة، ولا يُدنسُ الصمتَ.

هذا نَفسُكِ يتسللُ بين طياتِ الوسادة، على خطوطِ رقبتي، ويجلسُ فوق قلبي قبل أن يمرَّ، يروي بوجنتين حمراوين خدعةَ السحر، ويشيرُ بعينيه نحو سروالين داخليين على السرير.

يقول نَفَسُكِ:

كانتْ الأحرفُ تتصادمُ طويلاً، ويتساقطُ الثقيلُ منها فتَحدثُ اللعثمةُ بصوتٍ خفيض، تصلُ الحروفُ مواضعَها، تسخنُ، ثم تتفشى الصورة. أعلو دون أن يجفلَ الليلُ مني، أسقطُ مرات، وأضيعُ بالشعرِ الذي يَموجُ بإيقاع النفسِ، أعلو مرةً أخرى، وينقلبُ الليلُ في فراشِه، وتهتزُ نجمات.

في نَفَسِكِ سرٌ إذ يمدُ الطريقَ للكلمةِ فتصبحُ شيئا، فيمرُّ بالشيءِ فيتنفس، ويصيرُ للشيء روحٌ ويجري به الدم، يقطرُ من رأسه الماءُ في جوفِكِ.

لنَفَسِكِ ملمسٌ تحفظُه ذاكرتي من حلمٍ قديم، دافيءٌ، مضطربٌ، لا يسكنُ، ومن حولِه الإرواحُ إنْ لامسته تثورُ معه وتضطربُ.

هذا النفسُ مفتاحٌ، إنْ ضعتُ عنكِ سَليه عني، يعرفُ ما لا أعرفُه عن نفسي، يحفظُ التواءاتَ شعري المنكوشِ شعرةً شعرة، وعددَ عروقِ جسدي النافرةِ حين أغضبُ أو حين أشتهيكِ.

هذا النفسُ رافدُ نهري، إنْ ضعتُ عنك، أرسليه سريعا، سأكونُ دونَه حفرا قاحلا في الأرضِ، واسمي على ضفتي الحفرِ منقوشٌ بحصى يابسة.

أنتِ والعالم

(1)

ليكن العالم فستان حرير أبيض

تضعينه على سمرتك وتجيئين إلى تعبي؛

يستلقي منتظراً صدر العالم لينام.

(2)

كقميص باهض وجديد أطوي العالم على راحتِك، وأبدد أنهره.. أشم نسيمه خارجاً من خصلات الشعر الملفوفة كنوابض دخان بني، وأنجو من تيهه حين ألامسك، يا واحة صحراء العالم.

كصباح سيء، يحجبه الغيم، وتهجره الريح، ويسيل شفيف دمه فوق دقائقه، لا تبزغ شمسه ولا يمضي قدماً، أمر على العالم وحدي، رمادياً وأجاجاً، يتفتت آن ألامسه، ويعلق في قدمي آن أسير عليه، كأن دروبه وحل إسمنتي، حتى أصل إليك، فيحل الليل.

ومثل خصام لا أول فيه ولا آخر، ينصرف العالم عني، ويكون وجودي استثناءً للمنطق، فلا أغنية، ولا لعبة رقمية، ولا كأس الأمم الأوروبية أو فيلم، يكون خياراً. أشاهد نفسي في المرآة، أرى الصورة شاهدة قبر.. فأتبسم وأعلم أن خصاماً لا أول فيه ولا آخر، قد صرف العالم عني، فأسامحك وأطلب منك مسامحتي، فيعود العالم لي..

(3)

ما العالم؟

لا شيء على العالم

لا شيء سواكِ.

الفهرس

باب المأساة9
حديث مؤجل11
تناسخ15
مناجاة الزهرة للأغنية17
عاقداً يديَّ وراء ظهري19
صورة فوتوغرافية للتعب21
تهويدة22
تهويدة 223
عسر الكلمة.. إبراء الهواء24
العرّاف الذي قال: كذب المنجمون26
حسناء على رصيف السليكون 28
شبح الغاية30
الملاك يسقط31
فزاعة الحقل33
قلب متعب35
قصيدة الأمس36
قطعة ثلج38
مناجاة المناجي لنفسه39
باب الحسرة41
نقش الزوال45
نصفُك المرتبُ من السرير47
24 ساعة49
أحبك مكسواً بالشقاء52
إدراكٌ متأخر54
اشتياق بارد55
حرمان56
الاستمرارية61
التي لا تسمى64
الضوءُ وهالته66

في الطريق إليك69
المخذول ليلاً 71
رسالة من الجحيم74
صورةُ مثلى77
عن حزنِك78
عن قميصِكِ79
وداع مستحيل81
قصيدة الوداع 83
باب التيه89
وصفة الشعر والنجاة91
استغاثة93
قصيدة95
اعتراف97
ابنُ السماء98
حكاية جسدين101
مناجاة الجسد103
الأجاصة الخضراء106
انطواء109
باب الرجاء المفقود 111
خلف كل بابٍ، باب 112
خاتم يخلو من قوى السحرة114
آية النور116
الجميلة119
لوليتا121
صورة الفتاة المباركة123
صورة الفتاة الخائفة126
يا مريم128
نعم، تمتلكين قوى خارقة132
مكاشفة134
باب الوصول139
صورة واحدة 145
في انتظار الصباح148

محطة البداية150
خلاص الشاعر152
تخاطر154
دعاءُ انتظارِ الحبيب155
سفر الوجود الضائع156
صانعة النوافذ159
صلاة المسافة160
عيد162
قصيدةُ حبٍ على طريقةِ نيرودا164
كيف أكتبُ قصيدةَ حب168
نَفَسُكِ170
أنتِ والعالم172